الدولة العامرية

وسقوط الخلافة الأندلسية

تأليف

محمد عبد الله عنان

وهو الجزء الثالث

من كتاب دولة الإسلام في الأندلس

الطبعـــة الأولى

١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م

الحقوق كلهـــا محفـــوظة

Copyright ; Cairo, 1958

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الدواوين)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

مضت خمسة أعوام ، منذ صدر الجزء الثانى ، من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » فى سنة ١٩٥٢ ، مشتملا على تاريخ الفتنة الكبرى ، وقيام الخلافة الأندلسية ، حتى نهاية عصر عبد الرحمن الناصر . وكنت خلال هذه الفترة ، أرقب الفرص للمضى فى كتابة الجزء الثالث ، وتكملة العصر الأول ، من تاريخ الأندلس ، وهو الذى ينتهى بانتهاء الدولة العامرية ، وسقوط الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف .

ولكنى شغلت خلال هذه الأعوام الخمسة ، بإنجاز عملين هامين ، يتعلقان أيضاً بتاريخ الأندلس ، وهما إعداد الطبعة الثانية من كتاب « نهاية الأندلس » ، والعناية بإصدارها فى ثوبها الجديد ، والثانى إخراج كتاب « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ، وقد ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٥٦ . والمرجو أن تظهر الطبعة الثانية فى وقت قريب .

وقد استطعت أخيراً ، أن أتوفر على كتابة هذا القسم الجديد من تاريخ الأندلس ، وهو يتضمن أولا ما يعتبر ربيع الخلافة الأندلسية ، وهو عصر الحكم المستنصر بالله ، ثم نهوض الوزير محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور ، وقيام الدولة العامرية ، حتى انهيارها فى نهاية المائة الرابعة ؛ وما ترتب على ذلك من تفكك الأندلس الكبرى ، واضطرام الفتنة ، والصراع بين أهل قرطبة والبربر ، وتعاقب الحكومات الثورية ، على أنقاض الخلافة الأموية ، ثم قيام دولة بنى حمود البربرية أولا فى قرطبة ، ثم فى مالقة والجزيرة حتى نهايتها ؛ وقد استغرقت هذه الأحداث الخطيرة من حياة الأندلس زهاء نصف قرن ، من سنة ٣٩٩ – ٤٤٩ هـ (١٠٠٩ – ١٠٥٧ م) .

وبهذا القسم ينتهى العصر الأول ، من « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وسوف يتلوه العصر الثانى وهو تاريخ « دول الطوائف » ، ثم العصر الثالث ، وهو « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ، وهما عصران أرجو أن يتاح لى من الوقت ومن الجهد ما يمكننى من المضى فى كتابتهما تباعاً ، بمشيئة الله وعونه .

أما العصر الرابع والأخير ، من « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وهو « نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المتنصرين » ، فإنه بين أيدى القراء منذ أعوام ، وقد صدرت طبعته الثانية أخيراً ، مزودة بشتى الوثائق والنصوص الجديدة .

وقد جريت فى كتابة هذا القسم الجديد من تاريخ الأندلس ، على نفس المنهج الذى جريت عليه منذ البداية ، فاستعرضت تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، الى جانب تاريخ الدولة الأندلسية ، وعنيت عناية خاصة بتحقيق المواقع والأعلام الجغرافية ، ولا سيما تلك التى ورد ذكرها فى الغزوات العامرية ، وانتفعت فى بعض المواطن بثمار مراجعتى لبعض المصادر المخطوطة بمكتبة الإسكوريال ، وأفسحت المجال للمصادر القشتالية ، التى استطعت مراجعتها أثناء إقامتى بمدريد ، خلال الأعوام الأخيرة ، فى فترات متعاقبة .

القاهرة فى ربيع الأول سنة ١٣٧٨
الموافق سبتمبر سنة ١٩٥٨

محمد عبد الله عنان

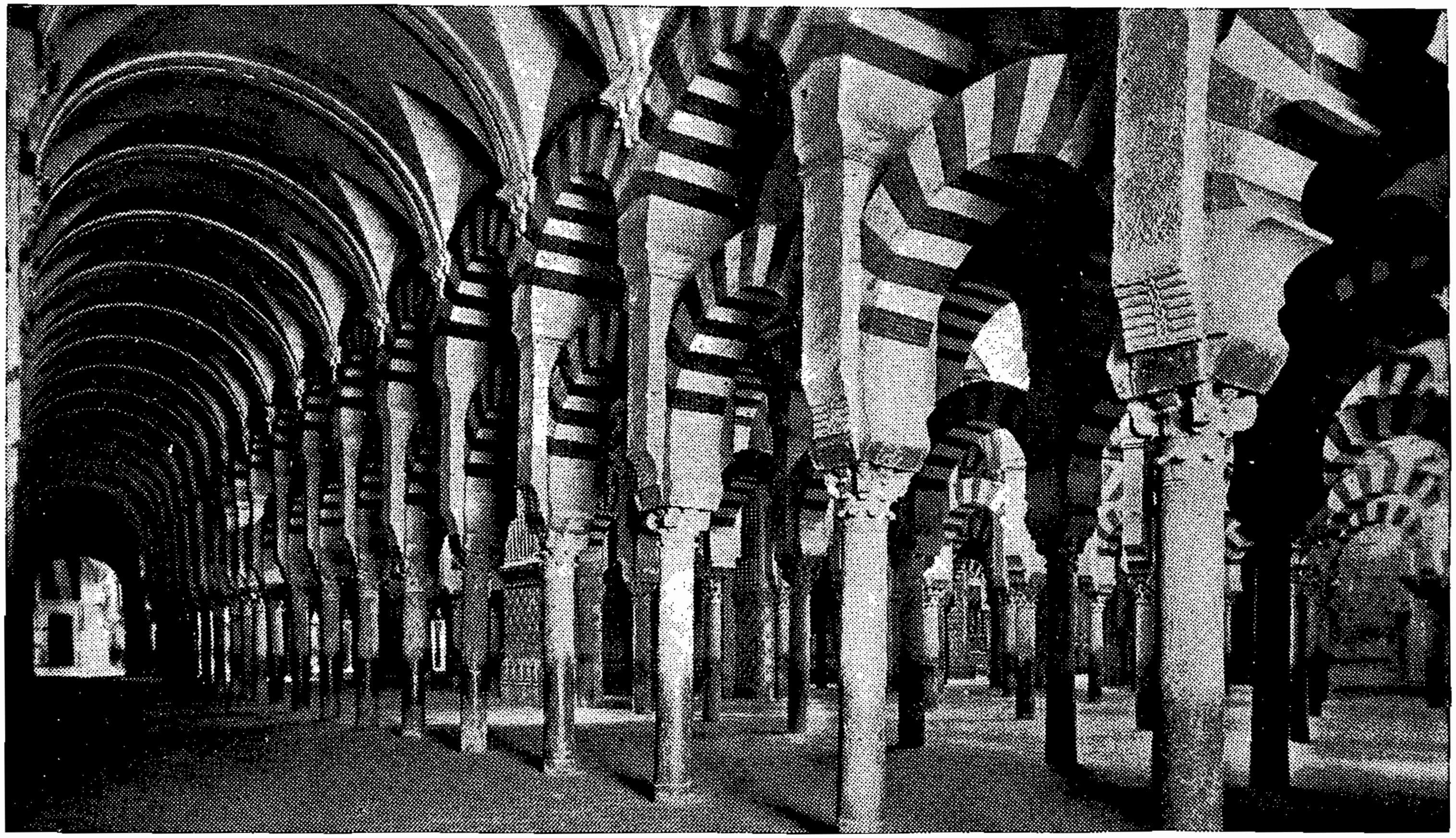

جامع قرطبة (الجناح الشرقى)

المسمى « بجامع المنصور » ، وهو الجناح الكبير الذى أنشأه المنصور بن أبى عامر فى شرق جامع قرطبة الكبير سنة ٩٨٧ – ٩٩٠ م
وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسية

٣٥٠ – ٣٧٠ هـ : ٩٦١ – ٩٨٠ م

الفصل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بتوسيع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى . خروج الحكم الى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتيبن . افتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان فى المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان الى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغدو مركز التوجيه فى شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين نائب المعز الفاطمى الى قتال زناتة . ولاء زناتة لبنى أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زناتة . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه الى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده الى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحكم يرسل كبير قواده غالبا فى جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن الى قرطبة . وصف لصفاته . مغادرته قرطبة الى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . مولد ولى العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم فى إنشائها . ذيوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولى العهد الطفل . تعليق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى . هديته الى الحكم . القائد غالب الناصرى . تكوين المجتمع الأندلسى فى هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . اليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى .

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية فى عهد الناصر ، على أســس ثابتة ، وسحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بنى أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورُد النصارى الإسبان الى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسى الى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول ؛ وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده[1] . وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (اكتوبر ٩٦١ م) ، وكان الحكم يومئذ فى نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة فى جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ (٩١٥ م)[2] وأمه أم ولد تدعى مهرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد فى قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك فى البهو الأوسط الذهبى ، واجتمع إخوته ، وسائر الوزراء ورجال الدولة وأكابر الفتيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص وأهل الخدمة ، وأكابر الجند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم فى المجلسين الشرقى والغربى ، وفى مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند ، فيما وراء باب السدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس فى الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاص ، فإنهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب (الناصر) الى قصر قرطبة ليدفن هنالك فى مقبرة القصر[3] .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً فى شئون الملك ، بل لقد مارسها فى حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة مختلف المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر فى توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه فى اليوم التالى لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين ، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب الى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثانى الى الحكم منها قدراً كبيراً ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع ببيروت سنة١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٠٢ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطي . وابتنى الى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية[1] .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة الى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجُه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه . وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً الى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدد آخر منها الى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع الى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثالث[2] رجلا مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضى المسلمين المجاورة ، وهى مما يلى غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأدنى . وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين ، فنما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح الى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تمادى النصارى فى بغيهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب الى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ الى الحكم ليعاونه على استرداد عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية فى وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين يدى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفى مكان آخر فردلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) . وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة للاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، ومعهم غالب الناصرى مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك فى آخر صفر سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) . وتلقاهم الوزير هشام المُصْحَفى فى قوات كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو الى ما بين باب السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه فى الروضة بداخل القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه فى دار الناعورة الفخمة ، وبولغ فى إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم الى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ فى الاحتفال بالزينات وإظهار الأسلحة والعُدَد . وجلس الحكم فوق سرير الملك فى المجلس الشرقى ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجىء بأردونيو وأصحابه ، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة فى بهو الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدى الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ، فلما وصل الى المجلس الخلافى كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً الى كرسى من الديباج المثقل بالذهب ، وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضى الذمة بقرطبة ، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعده برعايته . وبسط أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره ، ولكن خصمه لجأ الى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره عليه ، ومع ذلك فقد قصر فى الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه ، تحت رعاية الخليفة وأنه يتعهد بمحالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسية رهينة بصدق وفائه[1] . وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته فى تمليكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ، وخرج من المجلس وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التى أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبـــال   وسعوده موصولة بنوال

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

والمسلمون بعزة وبرفعــة — والمشركون بذلة وســفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه — متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتاه آخــذا — منه أواصر ذمة وحبــال
متواضعاً لجلاله متخشعاً — متبرعاً لما يرع بقتــال[١]

فلما نمى الى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المسعى ، فبعث الى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر[٢] . ولكن أردونيو ما لبث أن توفى ، وعاد سانشو الى نكثه بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكى يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وكونت برشلونة . وتأهب الجميع لمدافعة المسلمين .

وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم الى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش فى طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة الى أراضى قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتيبن المنيعة[٣] فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث ، أن يقف فى سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيه ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن الى طلب الصلح . ولكنه نكث عهده فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة[٤] . وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة فى اتجاه نافار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضى الإسلامية ناكثاً لعهده ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى الى مدينة قلهُرّة ، من قواعد نافار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها

---

(١) أورد لنا المقرى (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هى Atienza

وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيما . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالا نحو أراضى نافار مما يلى جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه[١] واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية[٢] . واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنتى ٣٥٢ و٣٥٣ هـ (٩٦٣ — ٩٦٤ م) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار الى بلاد ألبة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبى ، وقاسم بن مطرف ابن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن . وكان الناصر قد انتزعها من النصارى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم الى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها لمدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة[٣] .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك الى غزوات ناجحة أخرى ، قام بهـا المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنتى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات[٤] .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم فى تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفزها دائماً الى اليقظة والتأهب . وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم فى شهر رجب سنة ٣٥٣ الى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) فى جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها ، وليتخذ

---

(١) وبالإسبانية Yerba

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

مايجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسى ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة(١) .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى . ففى أواخر سنة ٣٥٥ هـ(٢) (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس فى مياه الشاطىء الغربى قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهروا فى مياه الأندلس لأول مرة فى سـنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان فى هذه المرة من أهل دانماركة المجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس(٣) . وعاثوا فى تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالا الى بسائط أشبونة الغنية اليانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً . واجتمع المسلمون فى تلك المنطقة لقتالهم ، ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفى تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس وسار على عجل الى شاطىء البرتغال الجنوبى ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شِلْب ، فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه . بيد أن سفنهم لبثت حيناً تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا . وأمر الحكم زيادة فى التحوط أن تحشد بعض سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة مراكب النورمان(٤) وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر الى العاصمة ، كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ . والإحاطة ج ١ ص ٤٨٧ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهى بالإفرنجية Alcacer do Sal

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

المياه الغربية (٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطىء ولاية الغرب الغنية . فأمر الحكم بتسيير الأسطول من ألمرية ومن إشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة(١) . بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من تفوق قوى المسلمين.

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل التحدث عنها ، أن نشير الى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية . فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنة ٩٦٦ م ، وخلفه ولده الطفل راميرو الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسية فرناندز . وتولى عرش ناڤار سانشو غرسية الثانى ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير أشتوريش ، (الأستورياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك ناڤار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم الى ما طلبوا .

ووفدت فى نفس الوقت سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ، وطلبت تجديد المودة والصداقة . ووفدت الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون ، فقوبلت فى قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها فى يوم مشهود ، وعقد السلم لملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج »(٢) .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفى سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد الى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً الى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت الى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية فى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) ، ورسالة أخرى فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من أمبراطور ألمانيا أوتو الثانى الذى خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التى كانت بين أبيه وبين الناصر .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر الى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر حوادث هامة ، شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد فى مملكته . وقد سبق أن أشرنا الى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه الى المغرب لمقاومة جهود الفاطميين فى السيطرة عليه ، ومحاربة زناتة والأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ، ومطاردتهم ، حتى أذعنوا فى النهاية الى طلب الصلح ، والاعتراف بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت فى ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى ، وارتدت الى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربى بحر الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم فى فاس ، فى قلعة حجر النسر المنيعة ، الواقعة فى جنوبى تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة ، إذ كانت تنضوى تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين (الفاطميين) أصحاب إفريقية أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة فى أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنون (أو قنون) وهو القاسم بن محمد بن القاسم ابن ادريس الذى قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة بالمغرب ، وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلى على المغرب ، ناكثاً بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر الى إفريقية فى أواخر سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) ، عاد الحسن الى طاعته لبنى أمية . ولما توفى الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر ، ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون

بنى أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم ، لوقوع مملكتهم فى شمال العدوة على مقربة من الأندلس .

وفى أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بلُـكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً الى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زنانة لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زنانة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان الأندلسى هذا قد استقر فى « المسيلة » فى المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر فى إقطاعه ، ولكنه خشى سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيرى ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال الى المغرب الأقصى ، ولجأ الى بنى خزر أمراء زنانة الأقوياء، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة فى زنانة وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب ، وانهزم الشيعة وقتل زيرى ، ومعظم رجاله ، واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة فى المغرب ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٣٦٠ هـ . واحتز الظافرون رأس زيرى ورؤوس عدة من أكابر صحبه ، وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما الى الأندلس ، وقدموها الى الحكم ، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته .

وكان لهذه النكبة التى حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق فى الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد ، المسمى بلكين (بلقين) أن يسير فى الجيوش الى المغرب حسبما تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية ، بأتباع زنانة حيثما وجدوا فى طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة فى المغرب الأوسط فى بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فمزقهم شر ممزق . ووصل بلكين فى قواته ، الى المغرب الأقصى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زنانة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زنانة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير حتى لا يقع

فى يد عدوه ، ومزق بلكين زنانة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملا[١] .

وسارع الحسن بن كنون ، القُلَّب مع كل تطور جديد ، الى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة . ولكن بلكين لم يمكث طويلا بالمغرب ، إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبته للسفر الى مصر ، مقر ملكه الجديد — فارتد عائداً بقواته الى إفريقية .

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر بإعداد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس . وعبر محمد بن القاسم فى قواته من الجزيرة الخضراء الى سبتة ، فى شوال سنة ٣٦١ ﻫ (٩٧٢ م) . وكان الحسن بن كنون عندئذ فى طنجة ، فخرج فى جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة الى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث الى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفى تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قواته ، وسار الى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان فى مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حُسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفى مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم . وكان ذلك فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ ﻫ ، وفرت فلول الأندلسيين الى سبتة ، فامتنعوا بها ، وبعثوا الى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث[٢] .

عندئذ بادر الحكم بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاه وكبير قواده غالبا بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » ، وأمده عدا الجند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد فى قتال

(١) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى » المنتخبة من كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول ، والمنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٦ ، ويرجع الكاتب هذه الموقعة الى سنة ٣٦٠ ﻫ .

(٢) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » التى سبق ذكرها ص ٨ .

الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبنى أمية . وقال له : « سر ياغالب مسير من لا إذن له فى الرجوع حياً إلا منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك فى الإنفاق ، فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »(١) . فخرج غالب فى قواته الجرارة من قرطبة فى شوال سنة ٣٦٢ هـ ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء الى قصر مصمودة . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظيم أهبته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة فى الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره الى قلعة حجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب فى رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقى معه فى قلعة حجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة ، ووصلت إليه من الأندلس أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، ومعه حملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣ هـ) فشدد الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته فى سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة واستئصال شأفهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم ، معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم . وفى صفر سنة٣٦٣هـ استولى غالب على مدينة البصرة . وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وفى تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهده الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر فى النهاية الى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى فى مسجدها للحكم ؛ ووصلت هذه الأنباء السارة الى الحكم ، وأعلنها الحكم فى جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل . وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم وقضى على دولتهم . وسار الى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وفى أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) عبر غالب البحر الى الأندلس ، ومعه الحسن بن كنون وسائر شيعته ، من زعماء الأدارسة ، ومعهم الأهل والولد ، فاستقبل فى قرطبة استقبالا عظيما ، وأنزل الأدارسة ، فى الدور التى أعدت لهم بقرطبة . وعفا الحكم عن الحسن ، وأجزل لهم الأرزاق والصلات ، وعين من حاشيتهم فى ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبذ تاريخية فى تاريخ البربر » ص ٩ .

عامين . ثم وقعت النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها، «سوء خلق الحسن وبلاجته» قال المؤرخ : « وكان الحسن بن قنون هذا جاهلا متهوراً فظاً ، شديد الجرأة ، قاسى القلب » . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة فيصلون الى الأرض إربا[1] . وهكذا ثقل وجوده وذووه فى قرطبه ؛ ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحَفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس ، فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة، وأن يبعث بهم الى المشرق . وأخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية الى تونس سنة ٣٦٥ ﻫ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا الى مصر ، حيث نزلوا فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم ، واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ ﻫ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، الى بلكين بن زيرى ابن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، الى أن كان من أمره ما سيجىء[2] .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرديناند كنثالث ، صاحب قشتالة وألبة ، قد خلف أباه فى الحكم ، منذ وفاته فى سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، فى إظهار رغبته فى السلم ، ثم يقوم فى الوقت نفسه بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، الى العدوة ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضى المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقى مدينة سالم ، والذى يتوسط أراضى بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هـــذا الاعتداء فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ ﻫ (صيف سنة ٩٧٤ م) وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ، فخرج فى أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه المنطقة ، فى أصحابهما ، واستنقذوا الماشية، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا

(١) « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع فى سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ — ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ — ٨٨ . و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٦ — ١٢ .

عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله الى قرطبة ، فى طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم الى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، فى سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت فى أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا الى قرطبة حيث زجوا الى السجن .

ووفد على الحكم فى العام التالى ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضى والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلات[١] .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن الى ذلك الحين قد أنجب ولدا ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث فى الملك . ومن ثم فقد سر أيما سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح الناقارية ، ولداً سماه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفى طفلا ، فحزن لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت « جعفر » ولداً آخر سماه أبوه هشاماً فكان ولى عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »[٢] وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البـــدر فى سحابه ... وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعـــالى ... ليثبت الملك فى نصابه
بشرنا ســـيد البرايا ... بنعمـــة الله فى كتابه

---

(١) لخصنا ما تقدم من أقوال ابن حيان فى قطعة مخطوطة من كتاب « المقتبس » محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (ورقة ٣٦ و ٣٧ و ٣٩) . وراجع بحثاً فى ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :
Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba de los ultimos anos de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أمه جعفر أو صبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسبما تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقنى ، جهير الصوت . قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم[١] .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر فى تاريخ الدولة الأندلسية ، هى ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شىء الى شخصية الحكم نفسه ، والى صفاته العلمية الممتازة ، التى نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسى ، والى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر فى ملء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامى .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس — وقد عاش قريباً من عصر الحكم — بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه فى العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها .[٢] ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الاعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا فى أكثر من موضع من مؤلفه الجامع فى الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم[٣] . ويجمل ابن الخطيب هذه الصفات فى قوله « وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماما فى معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميزاً للرجال من كل عالم

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين . والأقنى . ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدوب الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

(٢) الحلة السيراء ، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و٢٨٢ و٢٩٢ و٣٧٤ و٣٧٥ و٣٨٤ و٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً فى « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين الى المغرب » (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

وجيل ، وفى كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهمم به فكان حجة وقدوة ، وأصلا يوقف عنده »[١] .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذى قام به الحكم فى إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، الى تشجيع العلوم والآداب ، وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الأمير محمد كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر قسطنطينية حينما أرسل اليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفى الناصر ، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التى أنفق بقية عمره فى جمعها وتنسيقها[٢] . ويقول لنا ابن حيان فى دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع فى الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته الى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث الى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث الى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ليحصل منه على نسخة من كتابه « الأغانى » ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد فى العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً — وهو ممن ينتمون الى المروانية بنى أمية — كتاباً ألفه فى أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة[٣] . وفعل الحكم مثل ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم. وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى الكبير أبى على القالى ، الذى وفد من العراق على أبيه الناصر وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه[٤] .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٤١ .

(٢) J. Ribera : Disertaciônes y Opusculos (Madrid 1928) p. 191 & 192

(٣) الحلة السيراء — عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وأهدى إليه أبو عبد الله الخشنى بعض كتبه ومنها كتاب « القضاة بقرطبة » ؛ وأهدى إليه مطرف بن عيسى الغسانى، كتابه المسمى بالمعارف فى « أخبار كورة إلبيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولا سيما فى بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له فى بلاطه طائفة أخرى ، من البارعين فى نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل فى هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب فى مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفى ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيما خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون فى ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » . وذكر لنا أن تليدا الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التى كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط[١].

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة الى أخيه عبد العزيز ، وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها الى أخيه المنذر ، وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، فى أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى الذى كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفيائه فى تلك المجالس أيضاً ، الفتى سابور الفارسى ، الذى قدم بدعوته الى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره[٢] .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، فى عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار فى الحلة ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

الكتب فى قرطبة، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب الى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى ، طبيب الحكم الخاص ، وفى ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب . وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن اسماعيل بن نغرالة اليهودى ، وزير باديس أمير غرناطة(١) .

والى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام فى عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة فى أوربا — خلا رجال الدين — لا يعرفون . وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقدكانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها فى المسجد الجامع ، وتدرس فى حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشى ، ويملى أبو على القالى ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقى العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف(٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل، مسلمين كانوا أوغير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيرى، المسمى باسمه العربى ربيع بن زيد، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته، لتبحره فى علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهى من الدراسات التى كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الحبر القرطبى عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته، وكان يشغل مكانة هامة فى القصر(٣) .

يقول العلامة دوزى : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera; ibid. p. 199-202

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897), p. 607 & 612.

والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون الى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ، ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن ينصرفوا الى بحوثهم دون خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون »[1] .

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التى امتاز بها الحكم ، والتى سادت كل عصره . فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسبانى موديستو لافونتى :

« كانت دولة الحكم الثانى دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر . فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً ؟ ان ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراچان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . ان السلم الذى وطده أكتاڤيوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتاڤيوس من قبل ، الأدلة على أن هذه الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، واكليل الجامعات الحقيقى على اكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة الى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقرية فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة من أربعمائة ألف الى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستو لافونتى بعد ذلك الى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التى وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ،

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne ; Vol. II, p. 189.

ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر الغرس ازدهاراً عظيما حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاءة رائعة منعشة »[١] .

وقد اختلف فى تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التى أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف[٢] . وكانت توجد فى قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى[٣] . وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذى بلغته الحركة الفكرية والأدبية فى الأندلس ، فى هذا العصر الزاهر . ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى فى سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد[٤] .

* * *

وشعر الحكم فى أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصره فى قرطبة ، وأعلن عزمه فى تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة ، وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلا لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام فى الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه فى السكة .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة فى اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة « كان ممن استهواهم حب الولد ،

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; (Barcelona 1889), Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٣) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وأفرط فيه ، وخالف الحزم فى توريثه الملك بعده ، فى سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للأمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الجانية على دولته . وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفى . ثم توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦م)[١] .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بنى أمية خلقاً وعلماً وعدلا . وتنوه الرواية الإسلامية فى غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلا عادلا ، مشغوفاً بالعلوم »[٢] . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية»[٣] . وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الجديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله فى سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده فى محاربة الخمر وإراقتها[٤] . وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً فى محاسبة الطغاة من العمال والحكام ، يؤيد ذلك ما رواه صاحب البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة الى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، والى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب[٥] .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للنابهين منهم ، وقد جمع فى حكومته

---

(١) تضع معظم الروايات وفاة الحكم فى هذا التاريخ (الحلة السيراء ص ١٠١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، فى أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت فى الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٠١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٤) الحلة السيراء ص ١٠٣ .

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ .

وبلاطه جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى الى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدّم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رياسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ؛ ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلا له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه[1] .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد الى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الافرنجة ، وثلثمائة حربة افرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس[2] . وكانت هدية المصحفى للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية فى هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم . وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلا عن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها فى هذا العصر . وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما فى غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

---

(١) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى « الحلة السيراء » ص ١٤١ — ١٤٧ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فُطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطى ، كبير القضاة فى عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ، ومما ينسب إليه قوله :

الى الله أشكو من شمائل مسرف   علىّ ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه دارى فاستزاد صدوده   وإنى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ   من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت   وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيامقلتى العبرا عليها اسكبى دما   ويا كبدى الحرّا عليها تقطعى

* * *

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذى حدث فى تكوين المجتمع الأندلسى . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر فى القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى ، وكانت المعارك يضطرم لظاها باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإمارة وبين العصبية العربية ، التى تحاول دائماً أن تقيم رياستها فى الثغور والمدن على أساس الإستقلال المحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد فى مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحلية الى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفى عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية . وانحصرت الطبقة الوسطى ، فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ، ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة .

وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً ومسترقين من القوط ، دخلوا فى الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين فى الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التى حاولوا إثارتها لإشاعة الاضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا فى ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت فى تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون فى الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط . ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً اجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التى كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة فى المجتمع ، وكان لها فى الحكومة والقصر ، أيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا الى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، فى تطور الحوادث التى أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

والى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التى تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع فى القواعد الأندلسية فى أقليات كبيرة . وكانت تحتل فى العاصمة ، وفى بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة فى الحكومة والجيش . وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها . ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، فى ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور . ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة ، الى ذروة النفوذ والرخاء . وفى أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس

عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية الى العربية ، وهو الكتاب الذى أهدى قيصر منه نسخة الى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود الى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة[1] .

(١) راجع : R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola, Vol. I, p. 250-254.

الفصل الثانى

هشـــــام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر . الحاجب جعفر يناهض مشروعهم. محمد بن أبى عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة فى يدى الحاجب جعفر وابن أبى عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها فى بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبى عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . طبيعة العلائق بينهما . مصانعته للحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفى يتولى الحجابة وابن أبى عامر الوزارة . الصراع الخفى بين الرجلين . الخليفة الصبى هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبه والحجر عليه . دور ابن أبى عامر فى ذلك . طموحه الى الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب جعفر وابن أبى عامر على محقهم . ابن أبى عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبى عامر وغالب الى الغزو . ذيوع شهرة ابن أبى عامر . الصراع بينه وبين المصحفى . محاولة المصحفى التفاهم مع غالب . ابن أبى عامر يحبط خطته . مسير ابن أبى عامر وغالب ثانية الى الغزو . زواج ابن أبى عامر من أسماء ابنة القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاءل مكانة المصحفى . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبى عامر فى مطاردته . وفاة المصحفى أو قتله فى سجنه . شعر له فى محنته . ابن أبى عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفى الحكم المستنصر بالله ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الخصيان ، الفتيان فائق وجؤذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التى وضعاها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر فى تنحية ولى العهد الصبى هشام عن العرش ، واختيار عمه أخى المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش . وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفى يدهم الحرس الخليفى ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة . فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها .

استدعى فائق وجؤذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ونبآه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما ، فى تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما ، وتنفيذ ما يشيران به . ثم خرج ، فبادر

الى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبي عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى فى نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بنى برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة ، فى تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولى المغيرة ، واستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولى هشام ولى العهد الشرعى ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره فى الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبى عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، فى سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الجند بدار المغيرة ، ثم نفذ إليه محمد بن أبى عامر فى نفر من أصحابه ، ونبأه بموت الخليفة وجلوس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لابن أبى عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم فى أمره . ولكن الرد كان قاطعاً فى وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبى عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجه ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن فى نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبع وعشرين سنة . ووقع ذلك كله فى يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتيان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا الى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر الى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجؤذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر[1] . وسنرى فيما بعد كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين .

* * *

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة فى صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الاثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول اكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته ؛ واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكُتب بها الى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مثات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه(١) .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويع ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله ، والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسّامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية محلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الحطوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عائنهُ الذى يعاينه ، والمبانى قد بلغت السماء سموا ، وزاحمت الكواكب علوا ، والبلاد وقد بلغ فيها الى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد امحى ، والدولة المروانية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »(٢) .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدى رجلين ، هما الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة (٤٨ – ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

ستار ؛ تلك هى « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبى ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية فى الاشتراك فى الحكم وتدبير الشئون .

فمن كانت تلك المرأة ، التى لبثت ردحاً طويلا من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك فى تدبير شئونها ، فى السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن « صبحا » كانت جارية بشكنسية أى نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[١]. وظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها « بجعفر »[٢] ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسبما تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الإسلامية الى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك ما يدل ، على أن صبحا ، كانت تتمتع فى البلاط والحكومة ، بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[٣] أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الافرنجية «بالسلطانة صبح»[٤] بيد أن هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير فى مركزها الشرعى[٥] .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع فى البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع الذخيرة – القسم الرابع ج ١ ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) J. Conde: Dominaciôn V. I. p. 480&493; Dozy: Hist. Vol. II. p. 190&195.

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها فى معظم الشئون . وكانت كلمتها هى العليا ، فى تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد فى خدمتها وارضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة ، قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس . تلك هى شخصية محمد بن أبى عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه فى أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، يرجع الى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر فى الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طُرّش الواقع على نهر وادى يارو ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبى عامر بحصن طُرّش وأنفق حداثته فيه . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى الى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدثا ، ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع فى الآداب والشريعة . وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة[1] . وكان ابن أبى عامر فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر ، وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[2] . ولما توفى عبد الرحمن طفلا ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه

(١) الحلة السيراء ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٢٤٣ . والإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرى رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان الى أن طلبت =

هشام . وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة ، فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة ، وعلى أمانة دار السكة . ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) . وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) .

وهكذا وصل محمد بن أبى عامر الى أرفع وظائف الدولة والقصر فى أعوام قلائل . ويرجع الفضل فى تقدمه بتلك السرعة ، أولا الى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص الى عطف صبح وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد الى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال فى زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن فى خدمة صبح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيما ، ولم يُر مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبى عامر الى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ، ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر الى حظيته ، والى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى انه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن ، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإنى خائف على ما بيده »(١) . ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها استحالت غير بعيد الى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التى عين للنظر عليها ، فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ،

= صبح من يكتب عنها ، فعرفها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر ، فاستحسنت كتابته ، وعينته أميناً لبعض شئونها . (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة فى الواقع عجز كبير ، فهرع ابن أبى عامر الى صديقه الوزير ابن حُدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم الى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم ؛ وابن أبى عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ويستزيده ، ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبى عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبديه من التواضع والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، مؤثراً لجمع المال . وكان ابن أبى عامر على نقيضه فى ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ، وكانت داره الفخمة بضاحية الرُّصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق حوله جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه[1] .

فلما توفى الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة الى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبى عامر عندئذ ، من الانضمام الى الحاجب جعفر فى معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الفتيان الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى

(١) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

أملته الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبي عامر . وكانت العلائق بين صبح وابن أبي عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبي عامر ، يرى فى تلك المرأة ، التى تجتمع فى يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ؛ فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له ، ورقى فى نفس الوقت ابن أبي عامر من خطة الشرطة الى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى فى تدبير دولته[1] ، وبذلك أشرك ابن أبي عامر ، فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى . ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً . وكان يرى فى ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ، ويرتاب فى نياته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت ، لم يك ثمة شك فى نتيجته . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بمؤازرة صبح له . ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط الى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت ترجع أيضاً الى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة . كان ابن أبي عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير اعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبيعته وسنه الى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة ، التى تهيىء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، بين الخصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبي عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

فى نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما[1] . ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحا بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : «حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[2] . ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان فى نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفى الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »[3]. وفى الفرص النادرة ، التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبى عامر يتخذ أشد التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر ، أن يحدثه فى نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

وكان لا بد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبى عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لا يزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ما يزال بحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ما تزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب فى فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جؤذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحوطات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذى كان مخصصاً لدخولهم ودخول أصحابهم الى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس

---

(١) Dozy ; Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

على باب السدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جؤذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبى عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبى عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلا من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره . ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جؤذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتى من زعمائهم يدعى درّى . فتفاهم الحاجب وابن أبى عامر على إزالته ، فدعى الى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه والى عماله من رعيته فى بياسة ؛ ولما قدم درى ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فمنعه ابن أبى عامر ، فهجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبى عامر بالجند ، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل الى داره وقتل فى نفس المساء . ورأى ابن أبى عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقى زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم ، ثم جد فى مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وفشى فيهم القتل والنفى ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتى فائق فى النهاية الى ميورقة فمات هناك . وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبى عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحرم بدلا منهم .

ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو . وقد كان الصقالبة فى البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعاً من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة(١) .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكى يوطد ابن أبى عامر قدمه فى السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقى . وذلك أن النصارى القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا الى مقربة من العاصمة ذاتها . ولم يبد الحاجب فى ذلك ، ما كان واجباً من الهمة والنجدة . فاهتم ابن أبى عامر ، وأشار الى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبى عامر للاضطلاع بها ، وجهز المال

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٤ .

والجند ، وأشرف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة فى رجب سنة ٣٦٦ ﻫ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا الى أراضى قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية «لوس بانيوس» Los Baños (الحمامات) ، وتقع فى جنوب بلدة (بخار) فى السفح الغربى لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعاً الى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه الى الغزو(١) .

وكان لهذا الظفر الحربى الأول ، الذى حقق على يد ابن أبى عامر ، أكبر الأثر فى نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبى عامر للسير الى غزوته الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت فى توطيد مركزه ، وفى إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقوّل به الحاجب على غالب ، من تقصيره فى الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى . فانتهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالبا الى جانبه ، وسعى الى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه الى خطة « ذى الوزارتين » وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش الى غزوته الثانية ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ ﻫ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه فى محلة مجريط(٢) على طريق وادى الحجارة ، واخترق الجيشان معاً أراضى قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن موله ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبى .

---

(١) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك : Dozy : Hist. Vol. II. p. 208.

(٢) هى محلة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى ، وأنشئت بها قلعة منيعة . واستمرت تؤدى مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٤٧٦ ﻫ (١٠٨٣ م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد عاصمة اسبانيا الجديدة .

وكان لجيش غالب التفوق فى الأعمال الحربية فى تلك المنطقة ، ولكن غالبا تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه الى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر الى قرطبة بالغنائم والسبى ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيبته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً (١) .

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فما كاد ابن أبى عامر يصل الى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعانى قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، فى انتهاج الحزم والشدة فى ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغى والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئا ، وسلطان ابن أبى عامر فى صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر فى قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب الى طلبه ، وكادت تتم المصاهرة . ولكن سرعان ما علم ابن أبى عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب الى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده فى ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل الى مصاهرة ابن أبى عامر ، وتم العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبى عامر الى غزوته الثالثة فسار الى طليطلة فى أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان فى قواتهما شمالا ، وافتتحا فى طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا الى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربى مملكة ليون فاقتحماها ، وعاثا فى أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبى ؛ وعاد ابن أبى عامر الى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى .

---

(١) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفعه الى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه الى ثمانين ديناراً فى الشهر ، وهو راتب الحجابة فى ذلك العصر .

وما كاد ابن أبى عامر يستقر فى قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء الى العاصمة فى موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء الى ابن أبى عامر ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[1]، وان كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره ، حسبما نفصل بعد .

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة الى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفر لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبى عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شىء فى القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، فى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبى عامر الى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد فى مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخى الحاجب فقتل فى مطبقه ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبى عامر ، وزج جعفر الى ظلامة السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً فى داره ، واضطر إزاء التشدد فى مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة ، وكانت من أعظم قصور قرطبة ، وأمعن ابن أبى عامر فى نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المصحفى أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبى عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً فى مطبق الزهراء حتى توفى سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢م) . وقيل إنه قتل خنقاً فى مطبقه ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

---

(١) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215.

وكان المصحفى حسبما تقدم شاعراً جزلا ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه فى مطبقه كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لما تولت ... وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فياعجبا للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
وقلت لها يا نفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفى بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، فى إيثاره هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه الى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون املاء ، فسلط عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه »[1] .

وهكذا سار ابن أبى عامر الى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ فى تحقيقها الى أذكى الوسائل وأشدها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوىء . ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبى عامر مع خصومه فى تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم . ومزق جموعهم »[2] . ولم يكن مهلك المصحفى ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة فى سلسلة المطاردة الشاملة التى نظمها ابن أبى عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه جد ، فى نفس الوقت فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم فى البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفى ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

أبنى أميـــة أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومهـــا والكوكب
غابت أسود منكم عن غابهـــا ... فلذاك حاز الملك هـــذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبى عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم

---

(١) راجع فى محنة المصحفى الذخيرة – القسم الرابع ج ١ ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٨ ، والحلة السيراء ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ١٤٧ .

بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زناتة وصنهاجة وغيرهما من قبائل البربر ، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونافار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد . وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، واضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة كبير معارضة(١) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ . وابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٧ . وراجع : Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233.

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

٣٧٠ - ٣٩٩ هـ : ٩٨٠ - ١٠٠٩ م

الفصل الأول

الحاجب المنصـــــور

ابن أبي عامر يطمح الى حلل الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده فى الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذيوع علاقتها مع ابن أبي عامر . تحولها الى خصومته والتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسي يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدوة . الوحشة بين ابن أبي عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربته . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبي عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . غزوات ابن أبي عامر . غايته من القيام بها . مسيره الى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى فى شنت منكش . توغله فى ليون ثم عوده الى قرطبة . اتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسي . الحرب الأهلية فى ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . مسير المنصور الى الغزو . يخترق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حوادث المغرب . مسير الحسن بن كنون الى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره الى قرطبة واغتياله . ندب الوزير السلمى لحكم المغرب . اجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيرى زعيم مغراوة الى قرطبة . القتال بين السلمى وبنى يفرن . مقتله وولاية زيرى حكم المغرب . مسير زيرى ثانية الى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غزو بنى يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبنى يفرن . اشتداد ساعد زيرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور ليون واستيلاؤه على قلمرية . غزوه لناڤار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور الى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلاؤه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تآمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة . خروجه الى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار عبد الله والتجاؤه الى غرسية أمير قشتالة . غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عبد الله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت اشتبين وكلونيه . قصة الأيل الذى أهداه صاعد الى المنصور . مسير المنصور الى غزو ليون . إذعان برمودو وتعهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيرى . مسير عبد الملك الى العدوة لمحاربة زيرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلاؤه على بازو وقلمرية . توغله فى جليقية ومسيره الى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالا حتى ثغر لاكرونيه . عوده من طريق لاميجو الى قرطبة . ملك ليون يطلب الصلح . غزوة أخرى لقشتالة . موقعة صخرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لناڤار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النسور . ما تقوله عنها الرواية النصرانية . آراء البحث الحديث فى شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبي عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة فى يد المتغلب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبي عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ فى الافتئات على شىء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه الى أن يتشح بحلل الملك فى صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلاباً ، يتوج سلطانه الفعلى ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبي عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو الى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود فى قصر الزهراء ، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين[1] ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلا للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) ، فى بقعة تقع على ضفة نهر الوادى الكبير ، على مقربة من جنوبى قرطبة ، فى منتصف المسافة بينها وبين الزهراء ، وأنشأ بها قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة فى نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، وأضحت تنافس المدينة الخليفية فى الضخامة والرونق .

وفى أوائل سنة ٣٧٠ هـ ، انتقل محمد ابن أبي عامر الى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة فى الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعى ؛ وأنشأ ابن أبي عامر فى نفس الوقت حول القصر الخليفى سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أى شخص أو نبأ الى الخليفة دون علمه وأذنه . وبث عيونه على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر فى سائر

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ .

شئون المملكة ، لكى يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى ، وقطعت سائر علائقه مع الخارج ، ولبث محجوباً فى أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان[١] .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم فى مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لا ريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبى عامر على إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً الى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التى يسعى الى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطرمة الجوانح ، كانت تذهب فى حبها الى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر ابن أبى عامر على هشام وعلائقه بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعا عليـــه
وتملك باسمه الدنيـــا جميعا ... وما من ذاك شىء فى يديه[٢]

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

اقترب الوعد وحان الهلاك ... وكل ما تحذره قد أتاك
خليفـــة يلعب فى مكتب ... أمه حبـــلى وقاض ...[٣]

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة الى هذه العلاقة الغرامية التى استطال أمدها ، بين صبح وابن أبى عامر ، وإن كانت تؤثر التحفظ والإحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها المقرى لكاتب مغربى يدافع فيها عن ابن أبى عامر ، ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب[٤] .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والحلة السيراء ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً الى المقتدر العباسى .

(٣) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

(٤) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف صبح قد بدا يتخذ وجهة أخرى . فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبى عامر ، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب القديم ، الذى شغفها بابن أبى عامر دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح الى خصومة ابن أبى عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن أبى عامر ويقظته ، وسلطانه الشامل ، أن تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ الى العمل المستتر ، وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبى عامر والسعى الى مناوأته واسترداد سلطانه منه، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين، على ابن أبى عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت فى نفس الوقت ، أن تقوم بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبى عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدابير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبى عامر وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع فى قرطبة وسائر مدن الأندلس بسمعة عالية فى ميدان الفروسة والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبى عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع أن يقارع ابن أبى عامر ويقاومه . فرأى ابن أبى عامر أن يرفع الى مرتبة الوزارة جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناتة ، وكان مقيما بالعدوة ؛ فعبر البحر الى الأندلس ، واستقر فى الوزارة ، يكنفه ابن أبى عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولا سيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبى عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب الى مصانعة ابن أبى عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة فى أراضى قشتالة ، الى

وليمة أقامها بمدينة أنتيسة ، احدى مدن الثغر التى تحت ولايته ، وجاء ابن أبى عامر الى القلعة ، حيث أقيمت الوليمة فى بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع فى عتابه . ثم اشتد النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة فأصابه فى بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبى عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبى عامر لفوره الى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها فى الجيش ، وعاد الى الحضرة ، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم فى ذلك العصر ، وكانت لديه فى الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبى عامر ، وغلب عليها فى البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمده ببعض قواته . وسار ابن أبى عامر لمقارعة خصمه فى معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicentc على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر فى البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعمعة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه فى الحال الى ابن أبى عامر ، فدب الوهن والذعر الى قواته ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسراً ، وقتل فى المعركة عدة من الكبراء والقادة ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبى عامر . وكان ذلك فى الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس ٩٨١ م)(١) .

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التى شهرها ابن أبى عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتى خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم فى أية واحدة منها .

وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبى عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولا سيما عن الزمان والمكان(٢) ، ويجمل ابن خلدون ذكرها فى قوله :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك Dozy; Hist. Vol. II. p. 233 & 234

(٢) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن المؤرخ الكبير ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها فى كتابه الكبير الذى ألفه فى أخبار الدولة العامرية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا(١٤٩).

« وردد الغزو بنفسه الى دار الحرب ، فغزا اثنين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية »(١).

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة فى نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هى أن أبى عامر ، كان باضطلاعه بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر فى أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومى ، وأن يخضعها جميعاً الى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبى عامر فى غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون فى معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى . ولكن ابن أبى عامر كان هو البادىء بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع قط إلا بالنصر الكامل .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هــذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج فى مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبى عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، الى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو فى شئون الأندلس ، وقصد الى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيما حولها من السهول ، وأمعنت قواته فى التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم فى الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث الى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبى عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين فى ظاهر بلدة « روضة » فى جنوب غربى « شنت منكش »(٢)، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش الشهيرة ؛ ثم زحف

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

(٢) روضة هى بالإسبانية Rueda ، وشنت منكش هى Simancas

ابن أبي عامر بعد ذلك شمالا الى مدينة ليون عاصمة المملكة، وهنالك وقف راميرو في قواته محاولا اعتراضه، وحاول المسلمون اقتحام المدينة، ووصلوا في هجومهم بالفعل الى أبوابها، ولكن الشتاء كان قد دخل، وغمرهم البرد والثلوج، فاضطروا الى وقف القتال، وعاد ابن أبي عامر الى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر(١).

وعلى أثر هذا النصر، وفي أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبي عامر سمة الملك، فتسمى بالحاجب المنصور، وأمر بالدعاء له على المنابر، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن «الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر» ونقش اسمه في السكة، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده، عند المثول لديه، واجتمعت حول شخصه، وحول داره، مظاهر الجلالة الملكية، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم(٢). هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبي عامر باسمه الملكي: المنصور.

وكان المنصور حين استقدم جعفراً بن علي الأندلسي، ورفعه الى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه، ويخشى أطماعه ومشاريعه، في الناحية الأخرى من البحر، فما كاد ينتهي من أمر غالب، ومن ترتيب رسومه الملكية، حتى قرر أمره، فدعاه ذات مساء الى مأدبة حافلة، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه، ثم دس عليه في طريقه الى منزله من قتله، وحمل إليه رأسه سراً (٣٧٢ هـ). فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته. وكانت هذه الجريمة المثيرة، عنواناً لبعض النواحي القاتمة، في خلاله وفي وسائله السياسية(٣).

وفي ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت في ليون، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد، وزاد الشعب نقمة عليه، محاولاته في توسيع سلطانه، وتمكين حكمه المطلق. وما لبثت جلّيقية أهم ولاياته، أن اضطرمت بالثورة، وقرر أشرافها خلع راميرو، وتولية ابن عمه برمودو (أوبرمند) ملكاً مكانه. وفي اكتوبر سنة ٩٨٢ م، توّج هذا الأمير ملكاً على ليون في مدينة شنت ياقب. فسار راميرو الى محاربته، ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة،

---

(١) Dozy; Hist. Vol. II. p. 234 & 235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣٠٠.

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١. وأعمال الأعلام ص ٦٥.

فى بلدة بورتليا دى أريناس ، على حدود ليون وجليقية . ثم عاد برمودو الى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون فى مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ رامير و الى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها . وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه ، إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم الى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمده بجيش ، استطاع أن يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك فى مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك الى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً الى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فمرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن دجم بن خطاب وولده أبى الأصبغ موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه[1] .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالا . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى يد المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أوكارل الأكبر

(١) الحلة السيراء عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى أمارة قطلونية ، التى استحالت فيما بعد الى مملكة نصرانية قوية ، هى مملكة أراجون[1] . واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، فى أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة فى اليوم الأول من يوليه ، ولم تمض أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها فى يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يوليه سنة ٩٨٥ م[2] . ودمر المسلمون المدينة ، وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقتيد الى قرطبة ، حيث قضى فى الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى فى هذا الطرف النائى من شبه الجزيرة الإسبانية.

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه الى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذى نشب فى المغرب الأقصى ، بين الفاطميين مذ قامت دولتهم فى إفريقية ، وبين بنى أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنّون فى سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً فى كنفه فى قرطبة ، ثم أخرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا الى مصر حيث استقروا بها فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل فى أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ؛

---

(١) راجع الجزء الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٢٧ .

(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٧١ . وكذلك **Dozy; Hist. Vol. II. p. 239** والمراجع .

فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد الى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى فى العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق الدعوة المروانية فى المغرب الأقصى ؛ فأوعز الى نائبه على إفريقية (تونس) بلكين ابن زيرى بن مناد الصنهاجى ، أن يسير فى قواته الى المغرب؛ فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً الى الشمال ، واعتصموا بسبتة ، وبعثوا الى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، الى جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وهو من زعماء زناته ، بمحاربة بلكين ، وأمده بالجند والمال ، والتف حوله باقى الزعماء . ولكن بلكين استمر فى تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطاع الشمالى .

وفى سنة ٣٧٣ هـ بعث العزيز بالله ، الحسن بن كنّون زعيم الأدارسة ، من مصر الى المغرب تحقيقاً لملتمسه ، ليسعى الى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمده بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلّس تخالجهما أيضاً رغبة فى التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفيف من مؤنتهم[1] . فسار الحسن الى المغرب ، فى جيش صغير أمده به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بنى يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، فى جيش كثيف ، الى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ؛ فعبر البحر الى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة فى قواتهم ، وفى مقدمتهم كبيرهم زيرى بن عطية بن خزر . ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر الى المغرب بقيادة ولده عبد الملك ؛ وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم ير بدّاً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير الى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب الى طلبه ، وأرسل على عجل الى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذى منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذى تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله فى الطريق وأتاه برأسه ، وذلك

(١) « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٩ .

فى جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر فى تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير الى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناتة ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار الى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى الى المغرب سار مع الوزير الحسن الى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدّو بن يعلى ؛ ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه . ولكنه لبث مشغولاً بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب سجالا بينهم مدى حين[1] .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار الى قرطبة ، وقدم الى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر الى العدوة وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل الى طنجة حتى نمى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدّو بن يعلى ،

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ — ٣٠ ؛ والإستقصاء ج ١ ص ٨٨ — ٩٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ — ٢١ .

قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا على فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير الى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين ، وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدو ، وبعث زيرى برأسه الى المنصور (٣٨٣ ﻫ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء المغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه فى سائر أنحاء المغرب . واستمر فى الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى ؛ ولما كانت فاس بموقعها فى الطرف الغربى للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشىء لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوب شرقى مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربى تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ ﻫ) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى [١] .

* * *

ولنقف الآن قليلا فى تتبع حوادث المغرب ، لنعود الى تتبع حوادث الأندلس . ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى فى غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال فى ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشغب المستمر . وكان برمودو ، ملك ليون بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجد فى جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم الى خارج حدوده . فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ؛ فسار فى قواته نحو الشمال مخترقاً أراضى ليون ، ثم سار غرباً الى مدينة قُلُمرية ، الواقعة على مقربة من المحيط ، واستولى عليها فى يونيه سنة ٩٨٧م (٣٧٧ ﻫ) ، وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفى خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضى الثغر الشمالى ، فسار المنصور الى قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا الى الهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

فى نفس الوقت الى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا الى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة ناقار هذه ، دون أن تشير أية إشارة الى هزيمة المسلمين ، وهى تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه الى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب(١) .

وما كادت تمضى أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج فى ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) فى جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضى ليون شمالا ، فرابط برمودو فى معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار تواً الى مدينة ليون ، فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالڤو جونثالث ، ودخلها المسلمون فخربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً الى سمورة ، وأحرق فى طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سراً ، واضطر السكان الى تسليمها الى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) الى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جلّيقية(٢) .

وفى العام التالى وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه فى أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو فى فرص كثيرة مهداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبيون الذين غلبوا على بنى قسى ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن ابن مطرّف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، فى القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك Dozy; Hist. Vol. II. p. 244 & 245

التفكير فى التحالف مع جيرانه من النصارى ، فى ناڤار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر. ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبى عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته ، وكان عبد الله يومئذ فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر. ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه[1] . وكان عبد الله قد ذهب الى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهز التجيبى الفرصة، واستمال عبد الله إليه ، وأذكى حقده على أبيه ، وائتمر الاثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبد الله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه، وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى.

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة الى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً جميلا ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً الى أراضى قشتالة ، واستدعى إمداد الثغور ، فترافدت الى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل الثغور بوحى المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبنى هاشم ، أن يعين مكانه فى حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب « بسماحة » (نهاية صفر ٣٧٩ ﻫ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده الى الزاهرة[2] .

واستدعى المنصور فى نفس الوقت ولده عبد الله الى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار فى قواته شمالا الى شنت إشتيبن ، وبينما هو مشغول بحصارها، إذ فر ولده عبد الله فى نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ . (٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ .

فوعده بحمايته وتأييده ، فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ؛ فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على « القبة » بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً الى أن يتضرع الى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابته الى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعته، وبعث غرسية، عبد الله فى جماعة من القشتاليين، فاستقبله سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزلوه عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الجنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه فى الحال الى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح الى الخليفة، ودفن شلوه فى مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التى وقعت خلالها تلك الحوادث هى غزوته الخامسة والأربعون(١).

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، فى أشنع الصور وأروعها. ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التى اضطر فيها المنصور ، الى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائتمار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولا مع التجيبيين سادة الثغر ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد، ثم التجاؤه بعد ذلك الى ملك قشتالة، من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ، لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التى نجح المنصور فى إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبما كان يعتقد ، من أول ضحاياها(٢) ، فما كان عبد الله ليتردد عندئذ فى إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه . ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شىء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل عاطفة إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان، وكان للمنصور فى تصرفه المثير أسوة فى كل عصر ، وفى كل قطر ، بل كانت له أسوة فى بنى أمية أنفسهم من أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ، وأقدم الأمير عبد الله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر لدين الله،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy; Hist. Vol. II. p. 247 & 248

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً على السلطان . وقد كان القتل ، وما زال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ، يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه ، فاهتز له الناس ، وملئوا وحشة وروعاً (١) .

هذا وأما عبد الله بن عبد العزيز المروانى ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع الفرار فى الوقت المناسب ، والتجأ الى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، على ما ارتكبه فى حقه ، بإغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه الحرب الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتيبن وكلونية . ثم ترك جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد الى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب موافقات القدر . وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادى ، أهدى إليه ايِّلا فى عنقه حبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتالة ، وبعث به الى القصر يوم السبت منتصف ربيع الثانى سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيل
سميته غرسية وبعثته فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . ففى نفس اليوم الذى قُدم فيه الأيل والقصيدة الى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة (القصر) ، وذلك فى يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثانى ٣٨٥ هـ) . ثم توفى الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين (٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

وفى خريف هذا العام سار المنصور الى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المروانى . وكانت الأحوال قد ساءت فى ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق لملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقة ، والتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور الى ماطلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملا من قبله هو أبو الأحوص معز بن عبد العزيز التجيبى . وهكذا عادت قشتالة وليون الى دفع الجزية لحكومة قرطبة[1] . وأما عبد الله المروانى ، فقد ألقى به المنصور الى السجن مصفداً ، وتركه يرزح فى أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة فى طلب العفو والمغفرة[2] .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبى عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة فى اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

وفى سنة ٣٨١ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى فى سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر الخطط الأخرى التى كان يتقلدها ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبى عامر وفقه الله » كما قلد ولده عبد الرحمن خطة الوزارة .

ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس فى المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخوطب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ فى تكريمه وتعظيمه فى سائر المخاطبات . واستمر ذلك بقية حياته[3] .

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع Dozy; Hist. Vol. II. p. 249

(٢) راجع الحلة السيراء ص ١١٣ و ١١٤ . (٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبى عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة فى سبيل الاتشاح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى الى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل فى الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده الى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذاً فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله فى اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت فى يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه فى سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التى كانت تسيطر على الدولة ، والتى كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبى عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفى الفرص النادرة التى كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير فى موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه[1] . وكان الشعب القرطبى يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه ورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعى . أضف

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التى لجأ إليها ابن أبى عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، ليمنح ابن أبى عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته فى تسيير الأمور ، وفى تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبى عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من أغضاء الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينتزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هنالك صبح أم الخليفة المعتقل، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبى عامر وأخطرهم ، وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبى عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبى عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربته إياه، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل. هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالا ، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئا .

فلما عمد المنصور أخيراً الى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت أن تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعاتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بزيرى بن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه الى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سراً ، ليحشد الجند ويتأهب للعبور الى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته الى قرطبة؛وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته، وحجره على الخليفة ، ويدعو الى مقاومته ، ورد الأمر الى الخليفة الشرعى[1].

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شيء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التي أخذت تفتن في تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك في قوة من الجيش الى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم الى مجلس الخليفة ، وخاطبه في الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً الى الزاهرة ، ولم يبق منه في خزائن القصر شيء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً . ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين(١) .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار الى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، وانفرد بالخليفة في مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور الى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه في زى الخلافة في موكب عظيم ، وركب الى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفي شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيما مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته(٢) .

وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لامنقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت الى السكينة والعزلة ، فلانسمع عنها بعد ذلك في سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا نعثر باسمها

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) — المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ — ٥٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) الذخيرة — المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد أورد صاحب « يتيمة الدهر » للشاعر الأندلسى أبى عمر محمد بن درّاج القسطلى ، قصيدة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يــدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعــزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أياديك فى الصــالحا ... ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتــلك مآثرهــا فى التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمــالك الزاكيــا ... ت خيرُ المجازين خيرَ الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نســيم النعيم وطيب الثواء(١)

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية، وتطاوله على المنصور، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانه، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرد عماله بالمغرب، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيما بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمده بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر فى قواته الى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى فى قواته والتقى الجمعان بوادى زازات جنوبى طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر فى فله الى طنجة ، وكتب الى المنصور يستصرخ به .

فخرج المنصور من قرطبة الى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد فى محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر فى قواته الى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث الى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحى ، وسار لقتال عبد الملك فى جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح فى قوات لا تحصى . والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر

(١) وردت هذه القصيدة بأكلها فى يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

فى نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر الى الصحراء مع نفر من أصحابه .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلى بأهبات المنصور العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة جاء فيها :

لئن صديت الباب قوم ببغيهم ... فسيف الهدى فى راحتيك صقيل
فإن يحيي فيهم بغى جالوت جدهم ... فأحجار داود لديك مثول
هدًى وتقى يؤدى الظلام لديهما ... وحق يدفع المبطلين كفيل
يجمع له منه قائد النصر عاجل ... إليه ومن حسن اليقين دليل
تحمل منه البحر بحراً من القنا ... يروع بها أمواجه وبهول
بكل معالاة الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧هـ (نوفمبر ٩٩٧م) وكتب الى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهده على المغرب ، وعاد واضح بالجيش الى قرطبة . ولبث عبد الملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد الى الأندلس ؛ وخلفه على المغرب عيسى بن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى أوائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقيل وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانتهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ؛ ثم كتب الى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاده لولاية المغرب . بيد أنه لم يعش طويلا فتوفى فى سنة ٣٩١ هـ ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى الولاية ولده المعز ، فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقيما على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، الى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس(١) .

* * *

(١) راجع حوادث المغرب فى البيان المغرب ج ٢ص ٣٠٢،وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣،والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٣٠ — ٣٥ .

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جلّيقية فى قاصية اسبانيا الشمالية الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد الى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير الى جلّيقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأً لملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثانى أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقُب) الدينية ، كعبة اسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا الى نشأة هذه المدينة المقدسة ، والى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحوارى) التى اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشفت بمعجزة وقعت فى هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء[1]. وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية فى صميم معقلها القاصى ، وفى صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧هـ (٣ يوليه ٩٩٧م) على رأس قوى الفرسان . وفى الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى ، الذى أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبى دانس Alcacer do Sal فى مياه البرتغال الغربية ، شمالا بحذاء الشاطىء البرتغالى ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ؛ واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالا ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل الى مدينة قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربى ، واستولى فى طريقه على مدينتى بازو وقلمرية[2] . وهنا وفد على المنصور عدد كبير من القوامس (الكونتات) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم فى أراضى البرتغال ما بين نهرى دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم الى جيشه . ثم سار المنصور شمالا حتى وصل الى نهر دويرة ، وهنالك

---

(١) راجع دولة الإسلام فى الأندلس (العصر الأول) الطبعة الثانية ص ٢١١ و ٢١٢ .

(٢) هما بالإفرنجية على التوالى Viseu و Coimbra

وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعُدده وأقواته . واتجه الجيش الإسلامي بعد ذلك صوب جلّيقية ، وهو يقتحم السهل والوعر فى شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو (منهو) ، وسار بحذاء شاطىء المحيط ، واستولى فى طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية فى تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت الى الجزائر المقابلة للشاطىء ، فعبر المسلمون إليهم من بعض المخائض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمهم ؛ ثم اقتحموا الجبال الى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهى أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب فى يوم الأربعاء الثانى من شعبان (١١ أغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والمحافظة عليه . ولم يجد المنصور بالمدينة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أؤانس يعقوب فتركه ، وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، فى سقف الزيادة التى أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى .

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضى برمودو التى امتنع بها وعاث فيها . ولم يستطع أحد أن يقف فى سبيله ، ووصل الى شاطىء المحيط على مقربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل الى أراضى الزعماء النصارى (القوامس) الموالين له ، والذين صحبوه فى غزاته ، فأمر بالكف عنها . وتابع سيره حتى وصل الى مدينة لاميجو فى شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية مليقة) ، وهنالك وزع الهدايا والكسى الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم لى بلادهم ، وكتب بالفتح الى دار الخلافة . ثم عبر نهر دويرة على النحو الذى تقدم وصفه ، وقفل راجعاً الى قرطبة ، وفى ركبه عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ،

واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها الى أقصاها ، ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعين[١] .

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والمحن ، أن يسعى الى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن ابن عبد العزيز حاكم سمورة المسلم ، الى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور الى ما طلب ، وانصرف راجعاً الى أبيه[٢] . ولم يعش برمودو طويلا بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م ، وخلفه فى الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه فى قاصية جليقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى فى أراضى النصارى . بيد أننا لا نظفر فى شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة الى ناقار فى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)[٣] . وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) سار المنصور الى أراضى قشتالة فى جيش ضخم . وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى «من حيز بنبلونة الى أسترقة» ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى فى قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ، وجمع سانشو غرسية سائر قواته فى وسط قشتالة ، فى وادى دويرة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جربيرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار فى قواته تواً الى مدينة سالم ، ونفذ شمالا الى أراضى قشتالة حيث يرابط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جربيرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد الى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور

(١) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى فى البيان المغرب ج ٢ ص٣١٦—٣١٩. وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص١٩٣—١٩٥.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١

عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور الى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس[1] وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردوهم الى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الوقيعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .

وتابع المنصور زحفه فى أراضى قشتالة ، وهو يدمر كل شيء فى طريقه ، حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك فى يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره الى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة فى أراضى ناڤار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف فى سبيله . ثم عاد الى قرطبة ، وقد أنفق فى هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عوده الى قواده ، كتاباً ليقرأوه فى الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة منهم ، عاونت بثباتها على إحراز النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً[2] .

وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع فى الأندلس. وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنئاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد — وعهدت عندك منه ما لم يعهـد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى — غضًّا وعاد الملك عذب المورد
ووقفت فى ثانى حنين وقفة — فرأيت صنع الله يؤخذ باليد
من فاته بدر وأدرك عمـره — جربير فهو من الرحيل الأسعد

---

(١) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث ، وأصبحوا حلفاء له . وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وسمورة .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ — ٧٢ .

حملت ميامنهم عليك نشيجة ... كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ما ناجزوك وفى الجوانح موضع ... لتصبر ومكانة لتجلد
طال الشقاء عليهم وتبرموا ... بالجيش فى الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لحنث وتجمعوا ... لمفرق وتألفوا لمبدد .

وفى ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور الى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضى قشتالة شمالا ، ووصل فى زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبى ناجرة ، ثم سار غرباً فى اتجاه برغش وعاث فى تلك المنطقة[١] . ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا فى هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسى فرناندز كونت قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وقفت فى وجه المنصور فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى « قلعة النسور »[٢] ، وتقع فى غربى مدينة سُرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب فى قواته تحت جنح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً ، أو من الجراح التى أصابته فى الموقعة .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل هذه الموقعة ، وإليك ما يقوله فى ذلك المؤرخ لافونتى . ومما هو جدير بالذكر أنه يُرجع بداية حوادثها الى سنة ١٠٠١ م ، وفى هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثانى ، وكان تحت وصاية منندو كونتالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ؛ وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسيس ولد غرسى فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسيس الكبير .

يقول لافونتى : إنه فى هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت فى قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاة شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر الى الجزيرة ، وكانت هى الإمداد التى وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب الى المنصور . واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسلمة فى طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب

(١) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .
(٢) وهى بالإسبانية **Calatanazor**

قشتالة التى أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكى ليون وناڤار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامى العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة فى السهل الواقع جنوب مدينة سُرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا Numacia القديمة ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأستورياس الكونت مننده وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة وناڤار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم الى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواً نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى فى مكان يسمى « قلعة النسور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفى فجر اليوم التالى تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات المزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهنالك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ؛ وساءه ما لقى من مقاومة ، فاندفعت قواته الى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى الى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الخسارة التى حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر دويرة، وهو على أهبة الحرب حتى لا يطارده النصارى . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل فى محفة الى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتى : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة الى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وانه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هى خلاصة التفاصيل التى تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور . ويلاحظ أن هذه الرواية تُرجع الموقعة الى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور(١) .

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana T. III. p. 24-26

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل ساڤدرا وكوديرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى فى سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسى فرناندز كونت قشتالة فى سنة ٩٩٥م، وتوفى غرسية سانشيز ملك ناڤار فى سنة ١٠٠٠م ، فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف بين الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة، وهى لا تضن علينا فى مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها فى هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة(١) . ويعلل مؤرخ اسبانى معاصر هو الأستاذ مننديث پيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع الى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئى فى بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت الى المبالغة فيه شيئاً فشيئا(٢) .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل الى مدينة سالم ، وهى معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أمانى المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً فى سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيثما سار الى الغزو ، وهى أكفان صنعت من غزل بناته ، واشتريت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفى ليلة الاثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفى المنصور محمد ابن أبى عامر ، ودفن كرغبته فى صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه، وعمره أربعة وستون عاماً، إذ كان مولده فى سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

---

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 193-202 ; Hist. V. II. p. 263

وقد لخص العلامة المستشرق كونثالث بالانثيا آراء الفريقين فى كتابه :

Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58

(٢) R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه[١]

ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر . ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد الى بعض رسله ممن وجههم الى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبوت ، قد عفت ومحيت آثارها . وقد كان ذلك فيما يبدو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م[٢] .

(١) الحلة السيراء ص ١٥١ .
(٢) أعمال الأعلام ص ٨١ .

الفصل الثانى

خلال المنصور ومآثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه الى السلطان . وسائله الى ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الطوائف الإسلامية . عقمها وأثرها فى إنهاك الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء فى عهده . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته فى إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك نافار . وفود سانشو الى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلاله . إشادة النقد الغربى بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبى ، والطموح الفردى ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمته الى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه فى ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه فى بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه . وقد وصل المنصور الى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه ، ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحى السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية ، فى شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت اسبانيا النصرانية فى عهد الناصر ، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما فى عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية الى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة المتوالية ، وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية ، الى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته فى حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر فى كل منها بفائق كفايته وحزمه ؛ وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ، ويقوم ولده الطفل هشام فى الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت تواً الى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف فى سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات فى يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذى لا يطيق أية مشاركة فى سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً فى أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحى القاتمة فى عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ فى تدعيم سلطانه وحمايته الى نفس الوسائل المكياڤيللية التى يلجأ إليها الطغاة دائماً فى كل قطر ، وفى كل عصر : الى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير الى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولا يعف فى ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التى كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتى هى دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التى نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور ، وتفانيه فى الذود عن دينه ، وفى إعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيما أخلص فى خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها . ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص ، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة ، فاستقدمهم من العُدوة ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء[1] ، وكذلك استخدم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦ .

المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والجرايات السخية ؛ وكان يجمع فى جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق(١). واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعُدد ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها فى أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسى وكفايته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته الى الغزو المستمر ، فى أراضى الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه فى نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة الى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها ، أن أصدر المنصور فى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرابط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، إثر قراءة كتب الفتح ، وعُرِّفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير ، ومن خف إليـــه ، فمبرور ومأجور ، ومن تثاقل فمعذور »(٢) .

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التجانى) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ فى عهده من الفرسان اثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون فى الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجالة فى الجيش المرابط الى ستة وعشرين ألف راجل .

وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

---

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٢) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأما عن عُدة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار(١) .

وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد فى سبيل الله ، وكانت غزواته التى زادت على الخمسين ، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى الى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هى تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضى المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية فى أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عنى مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان — وقد عاش قريباً من ذلك العصر — بتفصيل هذه الغزوات فى مؤلف ضخم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير(٢) . وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس فى عصر المنصور بالغنائم والسبى من بنات الإسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج ، وركود سوق الزواج(٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه فى سائر غزواته الصائفة والشاتية ، ولم يقعده شيء عن القيادة ، والاشتراك الفعلى فى كثير من المعارك ، حتى أننا نراه فى آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولا على محفة ، ثم يقضى نحبه عقب الغزو ، بين يدى جنده وفى معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص فى سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التى يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى إذا وافته المنية ضمت الى أكفانه ، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته(٤) .

ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك بالإقدام

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (القاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السيراء ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملا وهو : «أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوى على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ . والمعجب ص ٢١ .

والشجاعة ، ويدعوهم الى مائدته فى المآدب الكبيرة ، التى اعتاد أن يقيمها لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية وغزواته المتوالية المظفرة ، وإن كانت فى الأصل تنطوى على غاية عسكرية وسياسية بعيدة المدى ، هى سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا فى حيز ضيق ، هو ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضى الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل الى الغاية الحاسمة ، وهى القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية ، وهى غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ؛ ومن ثم فقد استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تباعاً ، وأن تغدو بمضى الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ، ويشغلها فى كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذى استمر أجيالا بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية ، لا نرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو الغزوات الإسلامية العارضة ، التى كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً ، فى معظم الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية تقوم على أسلوب خاطىء ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل عن ذلك من تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية فى أراضى الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد الى العيث فى أرض العدو ، والى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح فى تحطيم قوى الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح فى الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ، وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق الى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة .

ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة فى عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التى اجتمعت لها فى أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التى كان رائدها المنصور ، وهو أعظ شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود

الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وُجهت نحو هذه الغاية توجهاً صائباً . ويقدر النقد الإسبانى الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود النصارى الى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقُلُمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية الى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل فى « الإسترداد »(١) .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التى لم تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور فى الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول . فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر فى سائر المناصب التى أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دار السكة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحد ، والمشرف على مصايرها فى الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور فى اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يبدها أحد من أسلافه ، فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته فى عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به فى عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء فى جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ الى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث ، وسوى مال السبى والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع الى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ فى الشهر نحو مائتى ألف دينار ، فإذا دخل شهر يونيه ، وحلت

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana; p. 629

الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الإستعداد للغزو . ووصلت الى خمسمائة ألف فى الشهر أو أكثر[١] .

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس فى هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبد الملك بن شُهيد ، ومحمد ابن جهور ، وعيسى بن فُطيس ، وأبو عبد الله بن عياش ، وأحمد بن محمد بن حُدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه . وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه فى سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة فى أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمه ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه الى كور الغرب لينظر فى شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده الى حسن رأيه ورده الى منصبه فى الوزارة ؛ وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة[٢] . وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكَم ، فبلغ فى ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه فى مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم الى أسر عريقة تعاقب أبناؤها فى الوزارة ، مثل آل شهيد ، وآل عبدة ، وآل جهور ، وآل فطيس ، وآل حدير وغيرهم ، ممن حملوا عُمُد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبو عبد الله بن عياش ، وعيسى بن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور فى الحجابة فى بداية عهده ، بعد المصحفى ، على بن جعفر بن حمدون الأندلسى ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٢) كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار — مخطوط بالإسكوريال — لوحة ٥٣ و ٥٤ .

الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقى كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذى تقدم ذكره[1] .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى الى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها « بالعامرية » . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل فى العامرية أبيات لعمرو بن أبى الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كاليوم من أيامك الأول ... بالعامرية ذات المـاء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل ... طيباً وأن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها ... بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا الس ... وسان من حينه فيها على عجل[2]

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيما منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع فى أيام المنصور حتى بلغ مبلغاً عظيما ، وبلغت أرباض المدينة يومئذ احدى وعشرين ربضاً ذكرهم لنا ابن الخطيب ، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلا[3] ، وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولا سيما منذ مقدم طوائف البربر الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضاقت رحبات المسجد الجامع بروواده ، ولا سيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً جديداً ، لأن ناحيته الغربية

(١) راجع فى ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة — المجلد الرابع ، القسم الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) فأقيم بحذاء الجامع من شماله الى جنوبه ، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعيت فى إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه الزيادة، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ، وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين بالخدمة به فى عهد المنصور ، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم ، مائة وتسعة وخمسون شخصاً . ومازال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية الى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون « بمسجد المنصور »[(١)] .

وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد الجامع ، وكانت فى الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمح بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك فى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها فى سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتنى المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادى الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، فى مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الجنوبية[(٢)] .

* * *

(١) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ — ٣٠٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة بحالته الحاضرة تفصيلا (ص ١٨ — ٢٨) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦ .

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لجأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله فى ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . ذكر المؤرخ ابن حيان عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدا عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه . ثم خلا به بعد أيام وقال له : « رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برىء من الحول والقوة لله ، وإنما أنه آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسى إلا ما أملك ، . . . فطامن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها ، أغدو به الى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه . ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وسيرى لجهاد الطاغية »(١) .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر بالله وعقابه . وكانت هذه من أعجب الخلال فى رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء فى سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكدها ، ومن دلائلها أن المنصور كان يحمل معه فى سائر غزواته وأسفاره مصحفاً خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به فى كل مناسبة(٢) .

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته فى إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات الى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات . وكان يقترن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هى تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس فى أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان(٣) .

ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هى شغفه بمعاقرة الخمر .

---

(١) إعتاب الكتاب لابن الآبار — مخطوط الإسكوريال لوحة ٥٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٢ ، والحلة السيراء ص ١٥١ .

وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل فى العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، فى تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، الى أن وصل الى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »[1] .

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هى الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسبما رأينا فى بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع فى الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به الى معترك السياسة والسلطان .

على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله فى أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر . ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

وكان من أخلص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادى ، أبو العلاء صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ ﻫ ، والمنصور فى أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبى على القالى ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة يملى كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب فى الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه فى كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية[2] . ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

(٢) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطبنى ، وابن العريف ، وابن التيانى ، وغيرهم ؛ وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف ، ويصطحبه المنصور فى نزهاته برياض الزاهرة ، وينظمه فى مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التى يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم صاعد، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ، ويشترك فى المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فاتن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب. وقد كان للفتيان الصقالبة فى الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ، وأصدر أحدهم فى ذلك كتاباً سماه « كتاب الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم[1] .

ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً فى سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر الى صقلية، واتصل بأميرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله . وكانت وفاته بها فى سنة ٤١٠ هـ .

وكان للمنصور ، فضلا عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعى يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء[2] . وكان فى غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى فى ميدان الحرب ؛ والى جانب هذا الشغف الشخصى بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ فى الإنفاق عليها، وكان يزور المدارس والمساجد ، ومجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

والى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب . وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادى أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار[3] .

(١) راجع الذخيرة — المجلد الرابع القسم الأول ص ٧ — ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .
(٢) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .
(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان وأبو بكر الزبيدى ، والأصيلى وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملا غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثانى قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمى الفلاسفة، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التى كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكى يرضى الفقهاء والدهماء[(١)] . واشتد المنصور أيضاً فى مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبى جمعة ، يهجس فى تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً[(٢)] .

وللمنصور شعر كثير جيد ، نظمه فى مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله فى الفخر :

رميت بنفسى هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنان مشيع ... وأسمر خطى وأبيض باتر
وإنى لزجاء الجيوش الى الوغى ... أسود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة ... وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة ... على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها ... وأورثناها فى القديم معافر

وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشام :

منع العين أن تذوق المناما ... حبا أن ترى الصفاء والمقاما
لى ديون بالشرق عند أناس ... قد أحلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأمانى وإلا ... جعلوا دونها رقاباً وهاما
عن قريب ترى خيول هشام ... يبلغ النيل خطوها والشاما

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبدالملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

« يا بنى : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى وروبتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبلك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولاتقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سَرَف راجع الى اختلال لا محالة ، فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن الى لين الجنبه . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شىء يقيكم الحنث فى يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة . فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التى لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه فى حياتى ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساغاً بينكما فى خلاف وصيتى ، فيسرع ذلك فى نقض أمرى ، ويجلب الفاقرة على دولتى . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فاكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب ما قدرت به خلاصى من مال الله الذى فى يدى . وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعينى فأنك أبوهم بعدى . فإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وان اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك القاء الأمَة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف ، فانتبذ بخاصتك وغلمانك ، الى بعض الأطراف التى حصنتها

لك . واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك ، فإنى أعرف ذنبى إليهم » .

وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

« تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنكم بوارق بنى أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم — وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفل فيكم »(١) .

وفى وصية المنصور لولده وغلمانه ، يرتسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحى توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بنى أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته . وقد كان المنصور فى ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما عن علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد .

وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثانى ملك ليون الى قرطبة فى سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور الى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك بأعوام قلائل الى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له(٢) .

والثانى ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التى وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معتذراً اليه ، لائذاً بعفوه ومهادنته .

والوجه الشائق فى ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ،

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين فى الذخيرة — المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٦ — ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً فى أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) R. M. Pidal: La Espana del Cid (1947) p. 71

وكان تقرباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمى أيضاً « شنجول » أو « سانشول » أى شانجُه (سانشو) الصغير نسبة لجده ملك ناڤار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره وتابع المنصور غزو ناڤار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو الى طلب الصلح ، وسار الى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه ؛ ووصل سانشو الى قرطبة فى الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيما ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند فى موكب فخم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل فى مهده ، لاستقباله ومرافقته الى قصر الزاهرة . فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله . ثم رافق الركب الى الزاهرة ، وقد اصطفت الجند على طول الطريق فى صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر الى الداخل صفين وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل الى مجلس المنصور فى عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور فى هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعاظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى الى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدى المنصور ورجليه ، وأمره بالجلوس على كرسى مذهب خصص له ؛ ثم انصرف الناس واختلى الملك النصرانى بالمنصور ، وأفضى كل الى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفى أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية الى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة . وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر فى وفود الملوك النصارى عليه ، ملتمسين منه الصلح والمودة[1] .

* * *

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وباهر صفاته ، وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، تنم عن عميق التقدير والإعجاب . ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القائمة فى تلك

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى «أعمال الأعلام» وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٦٦ و٧٣ و٧٤ .

العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلا الى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير »(١). وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »(٢). ويضفه الفتح بن خاقان فى المطمح فى تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من تقدمه) وأذكاهم جناناً ، وأتمهم جلالا ، وأعظمهم استقلالا . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام »(٣) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور فى تلك الفقرة : « وامتثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم فى عصره . فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، من غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها فى قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه »(٤) .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور فى مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلى :

قال مشيراً الى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً وندا ، وأبعدهم فى حسن الذكر مدآ ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته ألطاف الله الخفية فى الأزمات ، واضطرد

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

(٤) نقله صاحب الذخيرة — المجلد الرابع القسم الأول ص ٤٣ .

له النصر العزيز فى نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتى المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت الى غيره ...

« وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً . وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ، لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة » .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، الى أن وصل الى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره »(١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقدة الغربيين . وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ما سديه مشيراً الى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيما ، فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق فى شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو . وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعاً »(٢) .

ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ مننديث پيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام فى اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال الى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالمحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية »(٣) .

ويلاحظ الأستاذ پيدال فى نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Caltara Espanola

(٣) R. M. Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 72

كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين[١] .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الجملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ اليها المنصور فى اغتصاب السلطة ، فمن الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف فى لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق فى القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الواسطة ؛ لقد كان المنصور رجلا عظيما من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به »[٢] .

---

(١) R. M. Pidal : Origenes del Espanol; p. 423

(٢) Dozy; Hist. Vol. II. p. 275

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية

خلال القرن العاشر الميـــلادى

نهوض اسبانيا النصرانية فى عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثـانى . الحرب الأهلية فى ليون . استقرار راميرو فى الملك . ولاية قشتاله . جهادها فى سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كونثالث . ثورته ضد راميرو الثانى . هزيمته وأسره . ثورة قشتاله . الإفراج عن الكونت . طاعته لملك ليون . استمراره فى العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو . معاونة فرنان كونثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلوس سانشو . موقف فرنان كونثالث . اضطراب الأحوال فى ليون . فرار سانشو وجلوس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة الى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر . نكثه لعهوده . فرنان كونثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو الى الحكم . اتحاد الأمراء النصارى . غزو الحكم لقشتالة وناڤار . اضطرارها لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الاسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة فى جليقية . مصرع سانشو وجلوس ولده راميرو . وفاة فرنان كونثالث وصفاته . وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصارى على أراضى المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور فى ذلك . غزو المنصور لشنت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلوس ولده الفونسو . مملكة ناڤار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لناڤار . وفاة سانشو وجلوس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملاك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسى للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف فى مزاولته . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعى . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها فى النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها فى ذلك الصراع الداخلى المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تتنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، فى أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته فى عهد الناصر، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردوينو الثانى ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الباهر، فى موقعة شنت إشتيبن فى سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتيبن ، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضى الإسلامية ، نذيراً خطيراً لحكومة قرطبة، ولكن وفاة أردونيو الثانى فى سنة ٩٢٥م، وضع حداً مؤقتاً لتلك الثورة القومية ، التى جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفى ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش ، بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك ناڤار . ولكن سانشو لم ييأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً فى شنت ياقب فى أقاصى جلّيقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك ناڤار الى مؤازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه فى الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفى سانشو ابن أردونيو فى سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثانى فى سنة ٩٣١ م ، ففى تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدها أيما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهد ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الاسم ، ولجأ الى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً فى حصن شنت منكش (سيمانقه) . وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطر أن يعود الى الرهبانية ، وقد كان ألفونسو فى الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالمقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو الى نجدة ثوار طليطلة ، فغادر الدير ، وزحف فى بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه فى ليون واستولى عليها بدوره . ثم أراد أن يضع

حداً لمساعى ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه ، وسمل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا فى الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسبانى الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التى أنزلها راميرو الثانى بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكفى مر القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التى ورثت عن التشريع القوطى ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم »(١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلى عنيف . وكان راميرو الثانى أو ردمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضى الإسلامية ، وتارة يحرض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير الى إنجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين فى معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذى اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذى بلغ ذروته فى موقعة الخندق المشئومة ، التى دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة فى سنة ٣٢٧هـ (٩٣٩)م.

١ ـ نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور فى مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربى فى جلّيقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الجلالقة ، يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلى ، بل كان يشمل أيضاً قسمها الشرقى ، فى منطقة قشتالة ، التى كانت تسمى يومئذ «بردوليا» ثم سميت فيما بعد «قشتالة Castilla»(٢) وذلك لكثرة الحصون التى كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التى استحالت فيما بعد الى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضى التى سميت فيما بعد أراجون وسوبرابى ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبة . وكان ملوك الجلالقة أو ملوك أوفييدو ، قد غزوها وأضافوها الى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة

---

(١) M. Lafuente : Historia general de Espana T. II. p. 360

(٢) كلمة Castilla الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى فى الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم الى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة الى ولاية «ألبة» Alava « ألبة والقلاع » .

منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة ، وبذلوا جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلى ، وثاروا بالفعل فى عهد أردونيو الثانى فى أوائل القرن العاشر ، فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ، واضطر الباقون الى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة ، تحت سلطان زعيم محلى ، مقره فى « برغش » ، وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، فى شخص زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفى الرواية الإسلامية فرّان غنصالس) ، الذى غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصص الإسبانى فى العصور الوسطى . فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثانى ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ فى أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين فى موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة فى هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثالث ، وزجه راميرو الى ظلام السجن فى مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخمد جذوة الوطنية القشتالية ، ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور ، واستمروا فى الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هى أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ، وولائهم لأميرهم ، وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ، ومساهمتهم المخلصة فى الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مراراً على أراضى ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر الحدود بين أراضى قشتالة والأراضى الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) ، واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .

وكان فرنان كونثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات

قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغدو عرشها من بعده وراثياً فى أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية[١] .

٢ ـ مملكة ليون

وفى أوائل سنة ٩٥٠ توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهما أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أوراكا أخت غرسية ملك ناڤار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه فى ذلك ، معتمداً على عون أخواله الناڤاريين ، وجدته طوطة ملكة ناڤار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير ميال الى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف الى جانب سانشو ، إذ وعده بأن يرد إليه سائر أملاكه ، وأن يحقق أمانيه فى الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكى يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، وناڤار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر فى العرش . ورأى انتقاماً لخيانة صهره فرنان كونثالث أن يطلق زوجه الملكة ابنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضى ليون ؛ ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون فى تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً الى قرطبة فى أوائل سنة ٩٥٥ يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابه الناصر الى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفى أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو فى الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التى عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر الى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى فى الجيش

---

(١) R. M. Pidal ; La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 70 ; Altamira : Historia de Espana, Vol. I. p. 244 & 245

الى ليون ، فغزاها ، وتوغل فى أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كونثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقى سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى عرش ليون ، انقلب الى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان يبغى فى الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث الى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت فى مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين فى بعض المعارك التى خاضها ، وبأن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو الى بنبلونة ، الى جانب جدته طوطة ملكة ناڤار ، وقام الأشراف فى ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كونثالث ، وكان أحدباً دميما سيىء الخلال حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشو الى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً ، من قرطبة ، يتولى علاجه من بدانته ؛ وفى سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة الى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذى كانت تحكم ناڤار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على ناڤار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا الناڤاريون فى الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو الى برغش .

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به . ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون وناڤار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثالث اتجه وجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلا عليها ، وأخذ يسعى الى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضى الإسلامية . وكان يرى فى نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة

لتدعيم هيبته فى نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثالث ، على قول المؤرخ الإسبانى « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتاله من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة »(١) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع الى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء فى حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث الى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك الى نكثه السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بدأ من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بدأ من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضى قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثالث ، فى موقعة شنت إشتيبن ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربى نافار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكثه ، وإغارته على أراضى المسلمين ، وكيف توالت غزوات المسلمين لأراضى قشتالة ، ما بين سنتى ٩٦٣ و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلا أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهى أننا نجد قشتالة ، احدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها فى تاريخ الكفاح ، بين اسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة ، وتغدو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئا ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدها مراساً فى محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم فى ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجه تريسا ، وأخته الراهبة إلڤيرا ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو الى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى

---

(١) Modesto Lafuente; ibid; T. II. p. 361

الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات فى العام التالى فى حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسنادو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين فى مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدهم مراساً ، الكونت جوندسالڤو (غند شلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله فى المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالى ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، التقى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه الى مأدبة أقامها ، وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى الى أحشائه ، فحمل فى الحال الى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٩٦٦ م[١] .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، فخلفه ولده راميرو الثالث ، طفلا فى الخامسة من عمره ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه ، ونشبت فى ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولا سيما فى ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الإنفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلى . وكان مثل فرنان كونثالث فى الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم . ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هى ثورة جوند سالڤو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفى خلال ذلك ، توفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ،

(١) Modesto Lafuente; ibid; T. II. p. 341 & 342

وخلفه فى الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفى غرسية سانشو ملك ناڤار وخلفه ولده سانشو غرسية الثانى .

ويعلق المؤرخ لافونتى على عمل فرنان كونثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التى تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة فى نظرنا ، فإن معاملته للملوك ليون راميرو الثانى ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الردىء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك ناڤار ، حليفاً وخصما بالتوالى لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً فى تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء، ومقسما للولاء وناقضاً له ؛ ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها فى صالحه ، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه فى منتصف القرن العاشر (الميلادى) ، وهو الوقت الذى رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملوك ليون »[١] .

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفى مقدمتها مملكة ليون ، التى شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضى المسلمين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى الى تحسين علائقهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جليقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات فى موضعها .

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضى المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضى الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبى عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضى قشتالة فى أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦هـ)، ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة فى العام التالى . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التى شهرها المنصور بن أبى عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتى فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، الى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصرى ببعض قواته ، فى حربه مع

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana; T. II. p. 361

المنصور . فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى . استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها فى موقعة شنت منكش فى سنة ٩٨١ م .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرمت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره الى مدينة أسترقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ الى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة ، فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلى مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ الى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور الى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المملكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية .

ولكن برمودو حينما شعر بتوطيد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها . فنهض المنصور لغزوه ، وسار الى مدينة ليون فاقتحمها وخربها ، ومزق قوى النصارى ، ثم استمر يغزو أراضى ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية ببرمودو ، حتى اضطر برمودو الى طلب الصلح ، والعودة الى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) .

وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، الى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة اسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه فى تلك الغزوة معظم أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً فى النهاية ، من العود الى التماس الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور الى طلبه . وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما فى اصلاح الكنائس والأديار والقلاع ، التى هدمت خلال الحرب . ثم توفى سنة ٩٩٩ م . فخلفه ولده ألفونسو الخامس طفلا . وقام بالوصاية عليه الكونت مننديث جونثالث أحد أشراف المملكة(١) .

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira; ibid, Vol. I. p. 246

٣ ــ مملكة ناڤار

أشرنا فيما تقدم الى نشأة مملكة ناڤار المستقلة، فى أواخر القرن التاسع الميلادى، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام الأمير عبد الله، وفى أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر ناڤار فى صائفة سنة ٩٢٠م، ثم بعد ذلك فى صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخربها ، وسحق قوى ناڤار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة العدوان .

ولما توفى سانشو فى سنة ٩٢٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلا ، وحكم أولا تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ، التى لبثت تحكم باسمه طويلا ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت ناڤار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين . فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا ابنة الملكة طوطة وأخت غرسية . وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من ابنة أخرى لطوطة هى سانشا . وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً فى الممالك الثلاث . ولما توفى رامىرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٥٠ ، واضطرمت الحرب الأهلية حول وراثة العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت ناڤار الى جانب سانشو ، ولد الملكة أوراكا الناڤارية ، ثم وقفت بعد ذلك الى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشراف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة فى عونه الى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلائق بين ناڤار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما، فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، وأسر فى موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة، واعتقل فى ناڤار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفى الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التى تعهد بتسليمها الى أبيه ، وطالب ملك ناڤار بأن يسلمه أسيره فرنان كونثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم . وأطلق غرسية أسيره فرنان كونثالث ، فهرع الى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ،

وأرسله مخفوراً الى الحدود الإسلامية ، وهنالك التجأ الى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه الى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية فى الحكم ، حتى وفاتها فى سنة ٩٦٠ م .

ولما توفى غرسية سانشيز ، خلفه فى عرش ناڤار ولده سانشو غرسية الثانى . وكانت مملكة ناڤار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية ناڤار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها ، حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضى الإسلامية ، ورد المنصور على هذه الجرأة ، فغزا ناڤار وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة (٩٨٧م) حسبما تقدم .

وخلف سانشو فى الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى خمسة أعوام ، وفى عهده غزا المنصور ناڤار مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفى غرسية فى العام التالى ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ ـ عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع فى اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية .

لم يكن فى اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامى ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة . وكان هذا التباين ذاته ، يقوم فى الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث به من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الاجتماعية .

وقد بقى تكوين المجتمع النصرانى الإسبانى عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف فى أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان الى آخر ، ينقسمون بدورهم الى أشراف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولا من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف فى تكوينها على الملك ، يمنحها الألقاب والأراضى والوظائف . ويلحق

بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا الى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصارى ، كانوا ينتقلون الى الأراضى الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف معفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء فى عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم فى الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الإجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون أن يقتنوا لأنفسهم خيلا وسلاحاً ، ليشتركوا فى الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى الى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع ، فينضوى أهل القرية والضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم الى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا فى حل من تركه إذا قصر فى حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً . ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزرعها ، وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا الى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا الى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان فى وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

الى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصرانى ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء . وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً .

وكانت تتكون من عناصر عدة ، فهم عبيد الدولة . وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثانى عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك فى طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياع .

وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية ، وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون الى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون الى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة فى بناء داره . وتنحصر حقوقهم فى التمتع بالسكن ، والعيش فى الضيعة . وكان بيع الضيعة بغدو فى معظم الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، فى قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع اما بالعتق أو بالفرار أو الثورة ، على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، فى أعقاب الثورات التى يشتركون فيها . أما العتق فكانت يجرى وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل(١) .

٥ ــ تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسى ، وتوزيع السلطات السياسية ، فى الممالك

---

(١) Altamira; ibid; Vol. I. p. 287 - 293

الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هى الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هى أعلى السلطات وأشملها . وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التى يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه الى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذى يعين الأساقفة ويقيلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذى يقود الجيش ، وعلى الجملة فهو الذى يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية . على أن هذه السلطات لم تكن متساوية فى جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر .

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الإستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضياع والحصون . وكان السيد يعيش فى حصنه ، وهو يقع عادة فى موقع استراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك الى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الجملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولا يزاوله قضاة الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحد من هذه السلطة ، التى يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الخيانة ، وفى هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى

ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاولة القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة . وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها فى إذكاء شهوتهم الى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون الى الثورة ، لفرض ارادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك، يعمدون الى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولوكان فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة الى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للاشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح الى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتب الجرائم جهاراً ، فتعمد الى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك ، والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

والى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع الى الهبات والنذور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع ، تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، الى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات

أحياناً الى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتئات الأشراف المجاورين ، وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك الى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك الى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة . وكانت سلطة الأسقف تتخذ فى أحيان كثيرة صورة مطلقة فى المدينة وفى الحقل ، يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ، يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين[1] .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسى ، الذى تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذى ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا عديدة داخل الدولة ، يتنافى فى جملته وتفاصيله مع التنظيم السياسى للدولة الأندلسية الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بنى أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ، لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ، وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ، ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع الاستقلال ، إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب عملية واستراتيجية .

---

(١) R. Altamira ; ibid, Vol. I. p. 293 - 299

الفصل الرّابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتدبير المملكة . إشادة الرواية الاسلامية بعهده وبخلاله . يحذو حذو أبيه فى سياسته نحو المغرب . يتابع سنته فى الغزو . خروجه الى الغزو ومسيره الى الثغر الأعلى . عيثه فى أراضى برشلونة . عوده الى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه فى الزاهرة . سفارة أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر فى مدينة سالم . غزوة قلونية أو غزاة النصر . اتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استئنافه للغزو واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله بالسم . موقفه من الخليفة هشام . انهماكه فى الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى بن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفة واستئثاره بالسلطة . تغير عبد الملك عليه . القبض عليه وإعدامه. ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الوقيعة فى حقه . استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سخط الأسر العربية لذلك . تآمر ابن القطاع على إزالة بنى عامر . وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر السلطة . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفى المنصور بن أبى عامر بمدينة سالم، فى السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ ﻫ ، بعد أن ألقى الى ولده عبد الملك ، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر عبد الملك بالعودة الى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن، أمر العناية بمواراة أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل الى العاصمة ، حتى بادر برؤية الخليفة هشام المؤيد، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة، وجلس فى الحكم مكان أبيه بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب الى الجهات ، والى عدوة المغرب، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير المملكة مكانه؛ وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أيما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس، واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ، أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود الى النظام الخلافى ، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض فى الحال على عدد من المحرضين ، وأبعدوا الى العدوة ، واستتب

الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور فى الحكم ، فى الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٦٤هـ، ويكنى أبو مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك فى شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه فى كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء فى تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار فى غزو الممالك النصرانية.

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا فى صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان فى قوة وحماسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً، ما عهد مثله فى دولة . وسكن الناس منه الى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق فى بعد همته ، اطمأنوا بها الى جنبه ، فى السرور والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا فى الأحوال ، وتناغوا فى المكاسب ، وتحاسدوا فى اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا فى الفرش والأمتعة ، واستفرهوا المراكب والغلمان ، وغالوا فى الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك فى تلك المدة . وبلغت الأندلس فيها الحد الذى فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة فى احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا فى طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصفى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك فى عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه(١) .

بيد أن هذه الصور المشرقة التى تقدم إلينا عن خلال عبد الملك، تغشاها من الناحية الأخرى خلة قاتمة ، هى شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه فى لذاته(٢) .

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان فى نفوس الناس أطيب وقع ؛ وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس ، فى سائر بلاد الأندلس . فكان لذلك أثره فى التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، فى تأييد زناتة ومغراوة ، والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفى زيرى بن عطية زعيم مغراوة ، فى سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى عبد الملك الحجابة ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب إليه عبد الملك بعهده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على أن يؤدى الى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده[١] .

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه فى متابعة غزو الممالك النصرانية ، وألا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدوة ، للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، فى شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه ١٠٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس شاكى السلاح ، فى درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة ، فى أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه »[٢] وسار عبد الملك أولا الى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها الى مدينة سالم ، وهنالك انضم إليه الفتى واضح فى قواته ، ووفد عليه فى نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ؛ والإستقصاء ج ١ ص ٩٥ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً فى سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً الى الثغر الإسبانى أو بعبارة أخرى الى إمارة برشلونة التى بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة الى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبى جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتى واضح على حصن مدنيش(١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر(٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك فى بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبى .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر فى بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالا فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنئين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين الى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة فى جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة ، واخترق الثغر الأعلى جنوباً الى قرطبة ، فدخلها فى الخامس من ذى القعدة . وهنالك تلقاه الأكابر والعلماء مهنئين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره الى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفى اليوم التالى جلس بقصره الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً (٣) .

وقد نظم ابن درّاج القسطلى فى التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :

بدا ريح السعد واستقبل النجح … فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح
وقد قدّم النصر العزيز لواءه … وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة الى قرطبة ، يطلب عقد الصلح والمهادنة . فاستقبل السفراء الفرنج

---

(١) هو باسمه الإسبانى حصن Meya .

(٢) هو باسمه الإسبانى حصن Monmagastre ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منغص . (أعمال الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع فى أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ — ٩ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها[١] .

وكان من أثر هيبة عبد الملك فى نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس، يومئذ ما يزال حدثاً فى العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث . فلما احتكم الطرفان الى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، فقضى لمننديث كونثالث بأحقيته للوصاية ، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م)[٢] .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإنا نجد عبد الملك يخرج بقواته فى صيف سنة ٣٩٤ (١٠٠٤م) ويقصد الى أراضى قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، فقفل عبد الملك الى قرطبة ، واضطر سانشو الى طلب الصلح ، وقصد بنفسه الى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك فى غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .

وفى العام التالى (٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك فى قواته وسار صوب طليطلة ؛ وهنالك لحق به الفتى واضح وسانشو غرسية فى بعض قواته . ثم سار شمالا نحو أراضى ليون ، وبعث واضحاً فى قواته الى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى ، يقيمون فى بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء ؛ وعاث عبد الملك بعد ذلك فى أراضى ليون ، والى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بنى غومس ، ووصل فى زحفه فى جليقية ، الى بلدة لونة الحصينة ، واستولى فى هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبى . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن[٣] .

(١) الذخيرة — المجلد الرابع ، القسم الأول ، ص ٦٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

(٣) راجع أخبار هذه الغزوة فى الذخيرة — المجلد الرابع ، القسم الأول ص ٦٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

وفى أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك الى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة نافار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه الى سرقسطة ، ثم الى وشقة ، ثم الى بربشتر ، ومنها نفذ الى أرض العدو . ولكن هذا الاتجاه الذى اتخذه الجيش الإسلامى ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد الى نافار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالا الى أراضى ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقى بربشتر ، وهى احدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا فى هذه الغزوة بسيط ابنيونش وشنت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا فى أرض العدو قتلا وسبياً وحرقاً ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامى قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير ، تخللها قصف مفزع وبرد قارص ، وخشى أن تكون سبباً فى نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه الى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد فى استقباله شيئاً من الحماسة ، لضآلة النتائج التى ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شىء من الغنائم والسبى ، التى كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور(١) .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج فى طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثانى ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطلب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التى كانت قائمة بين ملوك بنى أمية ، وبين القياصرة ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا فى أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف(٢) .

ونمى الى عبد الملك فى تلك الأثناء ، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشو غرسية من قصد الى العدوان ، فرأى أن يعاجله بالغزو . فخرج من قرطبة فى صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) فى غزوته الخامسة ، وهى المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضى قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

(٢) الذخيرة ، المجلد الرابع — القسم الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى فى مقدمتهم بنو غومس[1] . ويشير صاحب البيان المغرب الى هذه الغزوة بقوله « غزاة النصر التى لقى فيها (أى عبد الملك) شانجُه بجميع النصرانية على اختلافها »[2]. ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى فى تلك الموقعة هزيمة عظيمة فى ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح الى قرطبة ، وقرىء على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العواقب ، من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين . وقفل عبد الملك بالجيش الى قرطبة ، فوصل إليها فى أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه «المظفر بالله» تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم[3] .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصرى هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو الى الألقاب السلطانية . فتقدم الى الخليفة هشام ، على أثر عوده من غزوة قلونية ، والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مروان » ، وأن ينعم على ابنه الغلام محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بلقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده . وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشىء وقتها . ففى منتصف المحرم سنة ٣٩٨هـ ، تحرك الخليفة خفية الى قصر ناصح من قصور الزاهرة . واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، أتبعه فى الحال بمرسوم التكريم الذى التمسه ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب للعمل به ، وإليك نص هـذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، المجلد الرابع ، القسم الأول ص ٦٦ .

عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، انا أريناك ... من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه، فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال ، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم فى جميع أقضيته ، ويقرنه بيمنه وسعادته ، بمنه وخفى لطفه ، وكذلك أنحناك التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الجارية منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا . إنافة بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد بن المظفر تلادنا ، أسعده الله بالإنهاض الى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشىء نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب بها الى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعنا طويلا بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب المظفر سيف الدولة أبى مروان عبد الملك بن المنصور » . فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس(١). وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسى ، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر فى عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة فى أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ ﻫ واخترق أراضى قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد الى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى فى البداية أن يردوا المسلمين فى ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا الى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ — ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

بالمجانيق والنار ، واضطر النصارى الى التسليم ، فأمر عبد الرحمن بقتل الجند وسبى النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً الى قرطبة فوصلها فى أوائل شهر ربيع الآخر .

وفى شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف « بغزاة العلة » . ذلك أنه ما كاد يصل الى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرتقب البرء . وفى أثناء ذلك دب الخلل الى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه الى قرطبة ، عليلا ضعيفاً ، وذلك فى منتصف محرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة ، فى منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل الى قصر الزاهرة فى محفة ، ومن حوله خاصة غلمانه ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢١ اكتوبر سنة ١٠٠٨ م)(١) ، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

* * *

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها فى متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل فى طرق الحكم . فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً فى قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الجند ، كلما سنحت فرصة خروجه فى موكبه . بيد أنه يبدو أن عبد الملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه الى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً فى ضيافته(٢) .

(١) البيان المغرب ج٣ص٣٧ . والذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص٦٦ . وأعمال الأعلام ص٨٩ . وذكر المقرى ان وفاة عبد الملك كانت فى المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبدالرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ هو مما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

وكان عبد الملك لانهماكه فى الشراب واللهو ، قد اعتمد فى تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة وواضح ، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى ابن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ، ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم فى تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولا سيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستئثاره بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طُرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقيعة والدس أن يزعزع ثقة عبد الملك فيه ، وأن يصرفه عن الإعتماد عليه ، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله فى تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة فى يده شيئاً فشيئا ، حتى غدا كل شىء فى القصر وفى الدولة ، وسما شأن الفتيان الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب . ومرض الحاجب فى أوائل سنة٣٩٦هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الإستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج الى الغزو فى شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقى طرفة بسيده فى سرقسطة ، فقدم إليها فى بعض القوات فى نفس اليوم الذى وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل الى عبد الملك فى قصره ، حتى قُبض عليه ، وصفد بالأغلال ، وحمل الى إحدى جزر الشاطىء ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو فى طريق العودة ، وأمر الحاجب فى نفس الوقت بقتل عبد الملك ابن إدريس الجزيرى الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة(١).

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه . على أنه لم ينعم طويلا بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ — ٢٦ .

فى مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه، وسما شأنه ، حسبما رأينا، ثم تضاعف شأنه واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد فى توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى، احدى بنات المنصور. وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة فى حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والنقمة ، بما كان يجنح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر فى مظالمهم ، والتعالى عليهم ؛ وكان حجابه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف فى معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً فى تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف الى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب فى مجالس شرابه وأنسه إلا فى القليل النادر ، لأنه كان مقلا للشراب ، فكان تخلفه يمهد لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقيعة فى حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب فى الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك فى الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه فى ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته فى وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع التقلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص فى حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه فى نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات فى يده ، ومشايعة رؤساء الجند له ، أقوى رجل فى الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف فى وجه بنى عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى فى الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتيان فى عهده نحو ألفى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم فى حوادثها شأن يذكر (١) . وكانت الأرستقراطية العربية تمقت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً

(١) الذخيرة ، المجلد الرابع ، القسم الأول ، ص ٦١ .

على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حُدير ، وآل فُطيس ، وآل شُهيد ، وغيرهم ، يتوقون الى انتهاء حكم العامريين ، ورد الأمر الى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل فى هذا السبيل ، واتجه ببصره الى سليل من المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر . وكان بينهما مودة وصداقة. وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، فى إزالة بنى عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه فى الخلافة ، ورد الأمر بذلك الى بنى أمية . فاستجاب هشام الى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكتم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تتلخص فى أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، الى حفل عظيم يقيمه بالمنية التى وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى يصاحبه هشام الى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته الى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى الى نظيف الفتى الصقلبى ، فأبلغه فوراً الى سيده ؛ وفى رواية أن عبد الملك بادر فى الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هى أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، فى مجلس شراب ينظم لهذا الغرض . ونظم المجلس بالفعل فى بهو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص بن برد ، فبادر عيسى بالركوب الى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل فى عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه فى وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهال عليه الجماعة طعناً

بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف بن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة فى النهر ، بعد أن وضعت فى زنابيل مثقلة بالحجارة . وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة فى مكانها حتى انقضت الدولة العامرية .

ونفذ الجند فى الحال الى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا الى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة فى أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل الى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله فى سجن أعد له ، وهنالك قتل خفية ، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع فى قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان . ولبثت الوفود أياماً تحضر الى الزاهرة لمشاهدة رأسه(١) .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره الى نفسه ، وعمل على جمع السلطة فى يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، بما أسرف فيه من النفقة والصلات ، وبما أسقطه للناس من سدس الجباية ، فاقتصد فى النفقة ، واجتهد فى توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية فى أواخر عهده(٢) .

وقد أشرنا من قبل الى طرف من أخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقاتمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عريا عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع فى مجلسه سوى الأعاجم من الخلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه(٣) . وكان يستمع الى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها فى الذخيرة – المجلد الأول ، القسم الأول ص ١٠٣ – ١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ – ٣٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة – المجلد الأول القسم الأول ص ٦٠ .

شاعر أبيه صاعد البغدادى ، وجعله شاعراً ونديماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن درّاج القسطلى ، والكاتب الشاعر أبو حفص بن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذا من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة المظفر ، فى وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والنرجس ، والبنفسج ، والورد ، والسوسن(١) .

ونظم بعضهم فى وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جديد وصنع جديد ودنيا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب وعز يدوم وعيد يعود
ودهر ينير بعبد المليك كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ — ٢١ .

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامرى . كيف كانت تلطفه عبقرية المنصور . ظهور مثالبه فى عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء خلاله . تودده للخليفة هشام . تلقبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه فى اغتصاب ولاية العهد . ضغطه على هشام لتحقيقه . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن فى الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العمامة . خروجه الى الغزو . يخترق أراضى ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب فى قرطبة . الاضطراب فى الجيش . سيره الى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة على بنى عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبى عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدى على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الإنقلاب . وحيرته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلى زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره الى أرملاط . التجاؤه وابن غومس الى الدير . ووقوعهما فى يد فرسان المهدى . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسى ، وأشدها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ما عرفت الأندلس ، وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذى فرضه المنصور ابن أبى عامر على الشعب الأندلسى ، وقُضى فى ظله على سلطان الخليفة الشرعى ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الإستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى فى المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق الى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

الى الأوضاع الطبيعية المألوفة . وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه فى الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته، وتبث فى نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفى المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف ، وبدت مثالب الحكم المطلق على أشدها، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبد الملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد فى ظله من السلام والرخاء، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة، من عكوف على الشراب، وانهماك فى الملاذ، والمضى فى اغتصاب السلطة الشرعية، وتمكين لنير الصقالبة والبربر ، والتطلع الى ألقاب الملك، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة.

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ خلالا ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، فى السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ ﻫ (٢٢ اكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل فى نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة ، مهنئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرِّف ، حينما تولى الحكم ، فتى فى الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثته « بشنجول » (سانشول) أو شانجُه الصغير ، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها فى انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد فى هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، انحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون، يقضى معظم وقته فى الشراب واللهو « يخرج من منية الى منية ، ومن متنزه الى متنزه ، مع الخياليين والمغنين والمضحكين ، مجاهراً بالفتك وشرب الخمر »[1] .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه، وفى الاستبداد بالرأى والحكم(١)، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً، فأكثر من الاتصال به، والتقرب إليه، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته، وتحقيق رغباتهم؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على المواقف الضرورية، ويقتصد فى رؤيته، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه، ويحرص على عدم تدليله، وكبح جماح حاشيته؛ وجرى ولده المظفر على هذه السياسة. ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته؛ ومن ذلك انه استأذنه فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة، ويكون الخليفة هنالك مع خاصته وجواريه، فأذن هشام بذلك، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً، وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى، حتى لا يعرفه أحد، واخترق الموكب شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند، ونزل بقصر ناصح. وهنالك عرض عليه الحاجب شئون المملكة، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون، وأن يضاف الى اسمه ناصر الدولة، فخرجت رقعة الخليفة بذلك الى الوزير الكاتب جَهْوَر ابن محمد، وتسمية عنوانها «الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله» وأبلغت بعد ذلك الى الجهات والكافة. وكان ذلك لعشرة أيام فقط من ولاية عبد الرحمن. فعجب الناس لهذه الجرأة، وأنكر الناس على الحاجب هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة، واعتبروها افتتاناً وغروراً، ممن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم. ولكن سوى نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر وأبعد أثراً(٢).

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة، حتى غادر الخليفة هشام قصر ناصح بقرطبة، الى القصر الخليفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته، يتقدم موكبه الحاجب عبد الرحمن، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة. وأقام الخليفة بالزهراء يومين. وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ، غادر القصر الخليفى فى أهله، الى منية جعفر المحاورة، ومعه الحاجب. وكان عبد الرحمن بعد أن حصل على ألقاب الملك، يجيش بمشروع ضخم، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بنى أمية، وينقل رسوم الخلافة جملة الى أسرة بنى عامر، فتتخلف أسرة بنى أمية فى ملك الأندلس. وقد رأينا

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ — ٤٢؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠.

فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها ؛ وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه فى حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلا ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع فى تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول فى سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان الى أن ركبها عميا ، مظلمة لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر فى عاقبة ، بل جهرها بالعجلة »(١) .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة ، إذ وُلد كلاهما من أم بشكنسية (نافارية) (٢) . ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس الى الخليفة من هدده بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده(٣) . ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضى الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد(٤) . وعلى أى حال فقد استجاب هشام المؤيد الى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه فى الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

الرسائل أبي حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله ابن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلا ، من أكابر أهل الدولة والحكام والفقهاء وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — أطال الله بقاءه ، الى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشي أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأً تنعطف عليه ، أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطراح الهوادة ، والتبرىء من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلفى الى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً في الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعيه الى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينيه الى أعلى درج النصيحة ، أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويحوى من حلل المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطاني ، الذى حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة الى النبي — صلى الله عليه وسلم — ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل

من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا الى غيره معدلا ، خرج إليه من تدبير الأمر فى حياته ، وفوض إليه النظر فى الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهوادة ، ولا مترك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك فى سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه فى هذا الكتاب . وهو — أعزه الله — جائز الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولى عهده المأمون ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور — وفقه الله — وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ »[١] .

* * *

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ فى تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن فى موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، الى قصر الزاهرة وهو « يختال فى ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها »[٢] . وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت الكتب فى الحال الى سائر نواحى الأندلس والعُدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفى اليوم التالى جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة فى هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفى مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ :

---

(١) ورد نص هذا المرسوم فى أعمال الأعلام ص ٩١ — ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد فى أعمال الأعلام لأنه أوفاها وأصحها .

(٢) البيان المغرب عن ابن عون الله ج ٣ ص ٤٦ .

« وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى ، برفع قصائد التهانى . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء فى ذلك(١) .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم فى ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

أن ابن ذكوان وابن برد   قد ناقضا الدين عن عهد
وعاندا الحق إذ أقاما   حفيد شنجه ولى عهد(٢)

وذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله الى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه قد حقق بذلك مشروعه العظيم ، فى تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على لهوه وشرابه، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال فى أبدع الصور وأحبها الى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة فى تلك الآونة، حادث ظاهر البساطة فى ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره الى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلانسهم الطويلة، المبرقشة الملونة، التى كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقى الطوائف، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا الى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة فى يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر فى أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لايزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية ؛ ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبد الرحمن أن يسير الى الغزو ، وأن يقصد الى جلّيقية . فاعترضه كبير الفتيان

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و ٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ — ٩٦ .
(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

الصقالبة، وحذره من مغادرة قرطبة فى هذا الوقت، وأوضح له أن المراونية (بنى أمية) يأتمرون به ، ويديرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الجند يميلون إليهم ، فلم يصغ الى قوله ، وأمر بالخروج الى الغزو(١) ، وعهد بإدارة الحكومة فى غيبته الى ابن عم أبيه عبد الله بن أبى عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م) أعنى فى أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طليطلة فى طريقه الى جليقية ، والأمطار تنهمر والبرد يهرأ الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته فى رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه . وما كاد يصل الى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث فى قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرها ، وأضرموا النار فى صروحها . وتسربت الأنباء الى الجند ، فوقع الاضطراب فى الجيش، واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش الى قلعة رباح ، فى طريقه الى قرطبة .

— ٢ —

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً الى قوة عسكرية تخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل الى الانقلاب المنشود .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً . وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المنصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق الى الانتقام . والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم.

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبد الرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى ، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ؛ وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى ، وكان من قبل من فتيان المراونة ، ثم انتقل الى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيما هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتى جريئاً مغامراً فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفى فى أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجمع حوله بعض الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سراً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول الى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سراً فى كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعاته فى المدينة أن دولة بنى عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود الى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر فى نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدرائه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبى ، وحالته النفسية إزاء العامريين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف

بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة تؤثر عنهم فى العامريين نوادر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون فى تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »[1].

ولم يكن المروانية ، وحدهم فى هذا التدبير الذى قصد به الى سحق نير العامريين ودولتهم ، فقد كان الى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قريش ، ومن المضرية واليمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التى عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بنى عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التى دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن الى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط فى قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجرة المتذمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالإنقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأهبة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً وينظمون خطتهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذى اختاره بنو أمية زعيما لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب فى قوله « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدرى فى أى واد يهلك »[2] .

وفى يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء الى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه الى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون فى الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

تسلحوا تحت ثيابهم خفية . فى عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن فى الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادى الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل فى قرطبة ، كانت أدعى الى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفى الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى ، منهم طرسوس المجوسى ، وهو أشدهم جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرين حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم فى الحال على صاحب المدينة عبد الله بن أبى عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجىء به مخموراً الى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح . فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت الى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهضوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونمى الخبر الى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد الى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم الى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره ، فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة فى ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلالم ، وصعدوا الى أعلى الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا الى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث الى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بنى عامر عن الحكم ، وأن يشركه فى أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب الى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضيئة . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمه ، وعين ابن عمه محمد بن المغيرة فى كرسى الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة فى خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه

ولى عهده ، وبعث الى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بنى عامر ، ويدعوه الى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول . واستدعى محمد فى الحال بنى عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة فى جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم الى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة . فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام فى الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة فى تلك الليلة الى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى. وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة الى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلا منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور فى وجه بنى عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامرى قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التى سوف تطيح بكل ما نعموا به فى ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفى الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بنى عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسلمة الى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع . وبعث محمد بن هشام الى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصرا المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعا فى قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفى صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدى ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبد الله بن أبى عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتخاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هى التى أمدت محمد بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع

الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان ، فبعث إليهم المهدى الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا فى مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحرم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدى على جميع محتوياتها ونقلها الى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف . وأطلق المهدى الجرائر من بنى عامر ، واصطفى الجوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح الى دورها بالمدينة ، وكانت حرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدى بكل ذلك ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، الى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدى الى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به الى خاصته . وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحاً لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعرى من المريد الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة[1] .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ .

— ٣ —

لما وصلت أنباء هذا الإنقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، الى عبد الرحمن المنصور أو شنجول ، وهو فى طليطلة ، بادر بالسير فى قواته الى قلعة رباح ، والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجند . وهنالك تمهل قليلا ، وأعلن فى الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه بذلك الى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا الى نصرة الخليفة المظلوم هشام ، والى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدى ودهماء قرطبة من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول فى الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم كبيرهم محمد بن يَعلى الزناتى زعيم زناته ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذى ترامى إليهم عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم فى نصرته ؛ وقوى هذا العزم لديهم ما أفضى به إليهم القاضى أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول فى غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحين ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر ملاحظته أن القاضى ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد من هشام .

وكان الى جانب شنجول فى معسكره ، زعيم من زعماء بنى غومس سادة مقاطعة كريون فى جليقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل عن السير الى قرطبة ، وأن يعود فى أصحابه الى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس الى نصرته . وقد بقى هذا الزعيم النصرانى الى جانب شنجول حتى النهاية(١) .

وعلى أى حال فقد سار شنجول فى قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى الى

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

« منزل هانى » ، وهى أقرب محلاته الى المدينة ، وما كاد الليل يرخى سدوله ، حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٠٩ م) فلم يبق الى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه ، وابن غومس فى نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين . وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول فى أهله حتى وصل الى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذى بقى معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمه قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلا الى الدير القريب . وكان محمد بن هشام فى تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نمى إليه أنه يزمع الفرار ، بعث فى الحال الحاجب ابن ذرى فى طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً الى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن الى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدى ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفى خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلا ليستريح ، فأجيب الى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده فى صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يده ، وأمر الحاجب بقتله . فذبح فى الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس . وحمل رأس شنجول الى المهدى فى نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدى فحنطت الجثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية الى جانبها ، وكان مقتل عبد الرحمن المنصور فى اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ الى نصف نهار يوم الأربعاء

تتمة الشهر ، وفى مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بنى أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب أضدادهم ، تقتحمهم العين هجنة وقماءة . وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وحزازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فتم منه ما لم يكن فى حسبان مخلوق تمامه »[1] .

* * *

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك فى ١٧ صفر سنة ٣٩٩ هـ ، والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذى شاده المنصور ابن أبى عامر ، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شىء الى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق الى التخلص من هذا النير ، الذى سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت بغض هذا النظام والرغبة فى زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملا جديداً فى إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع فى نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن الى الغزو ، كان الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبى الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

فى شيء من العواقب ، ولم يفكر إلا فى تحطيم هذا النير البغيض — نير بنى عامر — بأية وسيلة . وكان له ما أراد وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الإنقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبي دون تدبر ودون تحوط . ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية الى معترك مروع من الفتن المضطرمة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، ومواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سُقوط الخلافة الأندلسيّة
ودولة بني حمّود

٣٩٩ – ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ – ١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبى . شخصية المهدى . اضطهاده للبربر . تحامل العامة عليهم . نفى المهدى للفتيان العامريين . إخفاؤه للخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيثه وطغيانه . هشام ابن سليمان . سعيه الى خلع المهدى . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدى على البربر والفتك بهم . مسيرهم الى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتى واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدى للدفاع . مسير البربر وحلفاؤهم النصارى الى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جموعهم . المهدى يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدى وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأميرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدى وحلفائه الفرنج الى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدى . مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده الى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائتمار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد الى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر الى الزهراء واحتلالها . عيثهم بأراضى قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة ابن ماكس . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

تربع محمد بن هشام الملقب بالمهدى على كرسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعى الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التى وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذى أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدوها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من أسلاب الدولة المنهارة ؛

فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامرى ، وكان عددهم قد تضاعف فى أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم الى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبى ، أوبعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الجديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبى ، ولاية الخليفة الجديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامرى المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دروا أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالمحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التى تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدام يقدر المسئوليات التى أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً فى كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تتنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدى ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور وسند نظامه الحديدى . وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدى فى هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شذراً .

وبدا سخط المهدى نحو البربر فى سوء معاملتهم ، والتشدد فى دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص الكلام ، ولم يفرق فى ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة

صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه الى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً .

وسرت الى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر فى ضاحية الرُّصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس ابن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء . ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التى قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامريين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا الى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر فى موضعه . ولم يُقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن بن عامر ، فرد عليه المهدى بالشكر ، وبعث إليه أموالا ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك الى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه فى القصر أولا ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه فى بعض منازل قرطبة . وتوفى فى ذلك الوقت رجل نصرانى أو يهودى ، قيل إنه كان يشبه هشام شبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً . ودفن هذا الخليفة المزعوم فى اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ[1] .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ فى الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ، وبطش بكثير من الناس ، وفى مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندى ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب ؛ وزاد فى التحامل

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٥ .

على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، فى كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحترز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، وخشى سوء العاقبة على بنى أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى فى خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفى مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ؛ وحاصر الثوار محمد بن هشام فى قصره ، فبعث الى هشام القاضى ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام . ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربض الغربى حول محمد ؛ وخرج محمد المهدى فى جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، فقتلهم المهدى جميعاً [1] . وانثالت الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك فى أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم الى أرملاط [2] ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرض المهدى على قتلهم ، وجعل لرؤوسهم أثماناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك فى مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم ، وتوجس المهدى من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء الأذى ، وكتب الى البربر فى أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط ، وساروا شمالا الى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم .

وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهى بالإسبانية Guadimellato

منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدى ، ولقبوه بالمستعين . وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث فى قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر فى طليطلة على أن يمدهم بالجند ، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفى أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً ؛ وأمده المهدى ببعض قواته بصحبة غلامه بليق . فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم الى حليفهم سانشو ، فأمدهم بالجند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح فى مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares (قلعة عبد السلام) فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على حلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ(١) .

وارتاع المهدى لتلك الهزيمة ، وأخذ فى تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً فى أربعمائة فارس من الثغر ، انضمت الى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى فى جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها فى سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ ؛ وبرز واضح فى جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ، واضطرمت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل الى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً الى الوادى ، وتبعه البربر بعنف ، فضاقت بهم المسالك ، وقتل منهم عدد جم يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح فى رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً الى الثغر(٢) .

ولما رأى محمد المهدى هزيمة جنده ، أسقط فى يده ، وحاول أن ينقذ

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .

نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسبما تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر ، وبعث القاضى ابن ذكوان الى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه هو الإمام الشرعى ، وليس المهدى سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بجفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدى أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوى ابن زيرى زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم فى أثره فى يوم الاثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبى القُلَّب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر[1] . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على هشام المؤيد فى بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر فى الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الإعتداء تتوالى عليهم فى دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن فى دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية الى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد الى معسكره ، ووعده البربر بتسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا فى ربض مُنية العقاب .

أما محمد المهدى فما كاد يصل الى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدى وواضح ، خرج فى قواته من قرطبة ، وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها الى طاعته ، فأبوا ، وانصرف سليمان بقواته الى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل فى استمالة أهلها ، فارتد عندئذ الى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفى خلال ذلك كان الفتى واضح قد سار الى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمير برشلونة الكونت ريموند بوريل وزميله أمير أورقله الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر فى قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ،

(١) الذخيرة لابن بسام — المجلد الأول القسم الأول ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠ .

وأن يتناول كل منهما فى اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندى دينارين فى اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل فى طريقهم الى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين[١] .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح الى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدى فى قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالى قرطبة فى مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك فى منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته فى المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالا شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفى مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسمية الرواية العربية أرمقند) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم ، فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر . فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها الى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان فى بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفى اليوم التالى دخل واضح ومحمد المهدى قرطبة ، وجدد المهدى البيعة لنفسه وعين واضحا لحجابته[٢] .

واعتزم المهدى أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته ، فجمع الأموال من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطياتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته . وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ الى «وادى آره» أو وادى يارو[٣] ، على مقربة من مزبلة فى طريقهم الى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدى يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا فى معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة – القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .
(٣) وبالإسبانية Guadiaro

ومتاعهم[١] ، ووقعت هذه الموقعة ، فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ ﻫ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدى الى قرطبة ، وهنالك غادره حلفاؤه النصارى عائدين الى بلادهم . وسار البربر جنوباً الى ناحية ريّه ، وهنالك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه ، وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدى على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور وأخذ يستعد للدفاع ، وبحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر فى أثناء ذلك تغير على نواحى قرطبة من آن لآخر . وفى أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدى وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفى مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد ، وبنى عامر ؛ وكان قد وصل الى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدى ، وأخرجوا هشاماً المؤيد من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدى بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى جسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها فى الشوارع ؛ ووقعت هذه الجريمة فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٠٠ ﻫ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)[٢] .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلا فى نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى عليه مذ ولى الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولةالعامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدى ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده الى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألعوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدى .

(١) البيان المغرب ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة — القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدى الى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم الى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة ، خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسية أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معتزماً أن يوجه مطالبه الى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير الى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت الى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموها وقتلوا معظم الجند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيثون فيها تخريباً ونهباً وقتلا ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح . وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم . وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت الى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة الى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتى افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بنى عامر ، ولم ير هشام وواضح بداً من إجابة سانشو الى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى ؛ وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمى بتسليم عدد كبير من الحصون الى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين[١] . ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتيبن ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى .

واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيثهم فى أرباضها الخارجية ، وكانت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

الحالة تسوء من يوم الى يوم ، وكان الناس فى قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه الى مسالمتهم أو التفاهم معهم . ولم يجد المؤيد وواضح بدًّا من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد الى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح . وفضلا عن ذلك فقد أرهق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، الى بعض نواحى الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها فى الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته فى اغتيال المهدى ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة فى بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه(١) .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ؛ وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت الى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الإمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام الى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعده بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زيرى بأنه لا يستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لا يدخر وسعاً فى العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء(٢) .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام الى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة الى وزراء البربر ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسل بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعة من وجوه البربر وفى مقدمتهم حُباسة بن ماكسن ابن أخى زيرى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعة قريبة من الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيما ، ولكنهم غلبوا فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده إرباً ، لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته . فلما وقف أخوه حبّوس وعمه زيرى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ، واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالا . وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفى ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ؛ وخرج القاضى ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا الى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة .

وفى اليوم التالى دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد

وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية فى مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد الى ألمرية حيث عاش حيناً فى خمول وبؤس حتى توفى . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث[1] .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً الى المستعين ، وانتقل الى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ؛ ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة ؛ وكانت الفوضى قد سرت الى جميع النواحى ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان الى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة ، وإبعاداً لهم عن قرطبة من جهة أخرى ، أن يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ستة قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماؤها بنى زيرى ، ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمَّر وأزداجة منطقة شذونة ومورور ؛ وأقر منذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم الى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى آل حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى على بن حمود على ثغر سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون فى شئونها مكانة لها خطرها .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم الى شرقى الأندلس ، بعيدا عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك فى القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد[2] .

---

(١) راجع فى سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الاثير ، ج ٩ ص ٧٥ ؛ والمراكشى ص ٢٢ — ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ — ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

وقضى سليمان المستعين فى الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى فى قرطبة وسائر أنحاء الأندلس ، ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس ، وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش فى صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد فى مصاير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه « أحد من شرُف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه » وأورد له القصيدة الآتية ، وهى الوحيدة التى عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد « ملك الثلاث الآنسات عنانى » وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجباً يهاب الليث حد سنانى … وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً … منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى … زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظرى … من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال ، وتلك بنت المشترى … حسناً وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو الى الصبا … فقضى بسلطان على سلطانى
فأبحن من قلبى الحمى وتركننى … فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى … ذل الهوى عز وملك ثانى
ما ضرنى أنى عبدهن صبابة … وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى … كلفاً بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمّن إلفه … خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى … عاش الهوى فى غبطة وأمان[1]

(١) ابن بسام فى الذخيرة — المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراكشى ص ٢٥ .

الفصل الثانى

دولة بنى حمّود

ظهور البربر فى الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . . خيران العامرى ينتزع ألمرية ويدعو للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره الى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة الى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . مبايعته بالخلافة . اشتداده فى معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . . القتال بين المرتضى وصنهاجه . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه الى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم الى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم الى إشبيلية ثم الى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . استقرار المعتلى فى الثغور الجنوبية . رد الأمر لبنى أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكفى . اضطهاده للزعماء . خلعه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبنى أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بنى أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامرى وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده اسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقنه . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافة محمد بن إدريس المهدى . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعلى . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بنى القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بنى حمود . تفكك الأندلس وانقسامهــا .

لما قضى على دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبى عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه فى مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم الى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية فى أواخر عهدها ، وعاونوا فى توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى فى قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التى اضطرمت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنى أمية فى تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدى ، انحاز البربر للفريق المعارض لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الخصومة تضطرم فى الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، فى اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنى أمية . ولما فشل البربر فى محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدى ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعى ، ووسيلتهم الى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية.

وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر فى معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما على والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن حمود ؛ ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم الى الحسن بن على بن أبى طالب ؛ وإذاً ، فقد كان على والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة على والقاسم ، الى إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على[1] ، ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشى وابن عذارى ، وابن الخطيب[2] .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التى ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون فى الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، الى البربر ، وكان الطابع البربرى غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب الى ذلك فى حديثه عن على بن حمود[3] .

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى فى البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك فى أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفى الوقت الذى استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرقى الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفى مقدمتهم مجاهد الذى استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذى استولى على ألمرية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدى على الخلافة للمرة الثانية ، بمؤازرة واضح والجند النصارى ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد الى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضموا الى واضح ثم اشتركوا معه فى تدبير اغتيال المهدى ، وإعادة هشام المؤيد الى كرسى الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشام إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار الى شرقى الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بنى أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية وكانت بيد بعض الزعماء البربر ، فانتزعها منهم ، وأجلاهم عن كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه فى تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش فى الواقع ، فى صدور أولئك الذين رأوا فى ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمّود الحسنى ، قد ولى حكم سبتة ، وولى أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح الى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع الى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى فى الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا

ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد حينما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على بن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك(١) . فذاعت دعوة على ، ولبّاها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم ، فعبر على من سبتة الى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) وسار فى أشياعه من البربر الى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ؛ وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكّب الصغير ، ما بين مالقة وألمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد تزامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن بين الأسرى .

ودخل على بن حمّود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ (أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتل أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد ، ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا الى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ؛ وكانت مدة خلافة سليمان الثانية منذ دخل قرطبة الى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر(٢) .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس ، بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ و ج ٤ ص ١٥٣ ؛ والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ، ج ١ ص ٢٢٤ .

الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بنى عامر ، ثم شبحاً هزيلا يضطرب فى غمر الفتنة والفوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد فى معاملة البربر ، وإخماد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة الى الخروج والعصيان ، وفتك بالمعارضين له ، سواء فى ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة ؛ وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه فى الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبى الحزم بن جَهْوَر ، وأحمد بن بُرد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامرى ، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار الى شرقى الأندلس حيث تحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقى منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة الى جيّان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ؛ وانضم إليهم فى تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبى والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار فى جموعه أولا الى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره فى أيدى البربر ؛ وفى رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران فى أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادى آش ، وحملوا رأسه الى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشيا من غدره[1] . وسار خيران والمنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بألمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر الى الشمال ؛ قال ابن حيان « فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ .

وأقروا بالإدبار ، وباؤوا بالصغار » . واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، فسار فى بعض أصحابه الى ألبونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث(١) .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقى الأندلس صوب قرطبة ، كان فى سنة ٤٠٩ هـ(٢) ، وأن الموقعة حدثت فى أواسط هذا العام ، وفى خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسبما يجىء .

وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم الى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفى مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً (٣) .

ولكن القدر كان يتربص بعلى بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المجتمعين يومئذ فى منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقالبة من موالى بنى أمية ، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو فى الحمام وقتلوه ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة سنة ٤٠٨هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث فى الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة الى أخيه القاسم بنبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً الى قرطبة ، وبويع بالخلافة فى الثامن من ذى القعدة ، أعنى لستة أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون وقبض على الفتيان الثلاثة الذين قتلوا أخيه وأعدمهم لوقته . وكان يحيى بن على ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبتة ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر فى البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم الى جانب القاسم لأنه غبن أولا ، وقُدِّم عليه أخوه الأصغر .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب أن الموقعة حدثت بالفعل فى سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة الى سياسة اللين والمسالمة ، وأحسن الى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسوّر على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس ، فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً . وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك الى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفيه خيران والمنذر بن التجيبى ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى الى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس[1] . وعمد القاسم الى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقى معتصماً بألمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامرى ولاية جيّان وقلعة رباح ، محاولا بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيى بن على والى سبتة ، يرقب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه فى سبتة . وأخذ يحيى يحشد أنصاره تباعاً فى مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره الى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيى فى قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة الى إشبيلية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيى .

ودخل يحيى بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، فى مستهل جمادى الأولى سنة ٤١٢ هـ ، وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى ، وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسة ، ويجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أو مدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضى ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر فى إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلى ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا ، وهو أمر ليس بأذل منه ، ولا أدل على إدبار الأمور(١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى فى الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة الى مالقة . وفى الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية ، تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة فى الثامن عشر من ذى القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وسمى بأمير المؤمنين .

ولكن القاسم لم يوفق فى سياسته أيضاً فى تلك المرة ، ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا فى معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة فى النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر الى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها ، واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك فى كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر فى معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم فى نفر من صحبه الى إشبيلية ، وكان بها إبناه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ، وأخرج منها إبناه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن اسماعيل ابن عياد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه الى بلدة شريش(٢) .

وفى تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة الى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس والى

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

سبتة، على ثغر طنجة، وكانت أيضاً من أعمال القاسم وكان يعدها ملجأ له وملاذاً، يحتمي به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم فى فلوله الى شريش سار يحيي المعتلى لقتاله، وحاصر شريش حتى سلمت، وقبض على عمه وبنيه، وحملهم فى الأصفداء الى مالقة، وهنالك أودعهم السجن، وانفرد يحيي برياسة البربر، وبسط سيادته على شريش ومالقة وألمرية، وسبتة وطنجة من ثغور المغرب، وبايعه البربر بالخلافة، وسموه المعتلى بالله، وبقى القاسم يرسف فى سجنه ردحاً طويلا من الزمن، حتى قتل خنقاً فى سنة ٤٣١ هـ وهو فى نحو الثمانين من عمره[١].

وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم، وأجمعوا على رد الأمر الى بنى أمية، وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة، هم سليمان بن المرتضى، ومحمد بن العراقى، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة، وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى فى البداية، وكاد الاختيار يقع على أولهما، وبدىء بالفعل فى تحرير مرسوم البيعة، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام فى كبكبة عظيمة، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح، فدخل المقصورة، وعقدت له البيعة فى الحال، بين دهشة الحضور واضطرابهم، وذلك فى السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م). ثم خرج من المسجد الى القصر وقد اصطحب معه ابنى عمه سليمان والعراقى، فاعتقلهما لديه. ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير، وكان من شهوده، بإفاضة ممتعة[٢].

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بنى أمية السابقين مثل أحمد بن برد، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار، مثل أبى عامر بن شهيد،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشى ص ٢٩.

(٢) راجع الذخيرة – المجلد الأول – القسم الأول ص ٣٥ و ٣٦. ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد فى الرابع من رمضان. والظاهر أن هناك تحريفاً، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً، ومقتله فى الثالث من ذى القعدة، وهو ما يرد تاريخ البيعة الى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥).

وأبي محمد بن حزم (وهو الفيلسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم ، وقد كانا على قول ابن حيان « من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ، ونفاذاً في العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله ، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتي :

خدمة المدينتين ، الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المباني ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها ، وخدمة الخزانة للقبض والنفقة ، وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صبابة ، مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقه ، ويفرق حملته على من تكنفه من جنده ودائرته ، ويتطرق الى ما يقبح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرّى به فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته »(١) .

تلك هي الصورة القوية التي يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسي المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتى كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طلب ، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل الى المدن والثغور يدعو الى تأييد بيعته ، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم ، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه ، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المراونية ، وأعتقلهم بالقصر مع ابني عمه سليمان والعراقي ، وكانت هذه البوادر المكدرة تقضي على هيبته بسرعة ، وتذكي السخط عليه في صدور الخاصة والعامة معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم

(١) نقله في الذخيرة — المجلد الأول — القسم الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء ، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم : إننا حاربنا البربر وقهرناهم ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة ، وزحفت جموعهم على القصر ، واقتحموه على غرة ، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين ، ووثبوا الى جناح الحرم . وأدرك عبد الرحمن المستظهر أنه هالك ، فاختبأ فى أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه ، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة(١) .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، وكان مختفياً خشية البطش به ، فأخذ الى القصر ، وأجلس مجلس الملك ، وبويع بالخلافة فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفى بالله ، وبحث عن المستظهر حتى عثر به فى أتون الحمام فى حالة مزرية ، فأخذ الى حضرة الخليفة الجديد ، وأعدم أمامه ، وكانت إمارته مذ ولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم يحدث فيها حدث هام ، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة وأورد له طائفة من القصائد الجيدة(٢) .

وكان المستكفى يوم ولايته فى الثانية والخمسين من عمره ، وكان عاطلا من الخلال الحسنة ، ميالا الى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأى . وقد شبهه ابن حزم ، فى سوء خلاله ، وفى مجونه وفسقه ، وفى خضوعه لغانية خبيثة ، بسميه المستكفى العباسى ، وقد كان كلاهما فى نفس السن ، وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر(٣) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفى القصيرة ، أحداث ذات شأن ، وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفى أيامه هدمت القصور الناصرية ، وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .

واضطهد المستكفى معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ،

---

(١) الذخيرة المجلد الأول — ١ ص ٣٨ و ٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٨ و ١٣٩ .
(٢) راجع الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الأول ص ٤٠ — ٤٣ .
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

وغادر كثيرون منهم قرطبة ، ولجأوا الى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى ابن حمود سوء الأحوال فى قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير الى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت الى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة الخلافة ؛ وعلى أى حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفى العاطلة الماجنة الفاسدة ، ونادوا بخلعه ، فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له فى القول ، وطلبوا إليه التخلى ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة فى نفس اليوم متنكراً فى زى امرأة . وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكفى صوب الثغر فى نفر من صحبه ، ووصل الى إقليج من أحواز قرطبة ، وهنالك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل مالا . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه[1] .

ومضت بضعة أشهر ، والحكومة فى قرطبة فوضى لا ضابط لها ؛ وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير الى العاصمة ، فقصد إليها فى قواته ودخل القصر فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥م) ، وبقى بها الى نهاية هذا العام، ثم غادرها فى أوائل المحرم سنة ٤١٧هـ قاصداً الى مالقة، وترك بها وزيريه أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبى روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى.

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا الى قرطبة ، وأوعزا الى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس الى مالقة ، وكان ذلك فى العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ، ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفى هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية الكبيرة « ولادة » ، التى اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتى أوحت الى الوزير الشاعر ابن زيدون المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع القرطبى الرفيع وقد توفيت فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ — ٤٤٩) .

الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخي عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه فى سنة ٤٠٩ هـ ، قد فر من قرطبة فى نفر من صحبه ، ولجأ الى مدينة ألبونت فى شمال شرقى الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى ؛ وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بحصن ألبونت ، فتلقاها فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقى بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة ، ثم قدم إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ فجددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين . وسُرّ القرطبيون لمقدمه فى البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور الى رجل من الموالى يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده فى الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين من كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ، وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة الشيخ برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، الى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور الى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس فى وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها ، والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقى ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ولكن بعيد الأطماع ؛ وفى ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه فى المدينة ، وتركوا جثته فى العراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية فى جموعه الى القصر ، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه ، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ، ونصحهم بالكف عنه لما أبقوا على شىء . وخشى هشام المعتدُّ على نفسه ، فبادر الى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه ، ولجأ الى ساباط الجامع . واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خلعه ، والتخلص جملة من بنى أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفى بنى أمية ، وإجلائهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم فى ذلك أبو الحزم بن جهور ، وكان هذا الوزير النابه

يستأثر نظراً لماضيه التالد وأسرته العريقة ، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده ، وسنرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور فى مصاير قرطبة .

وانتهى القوم الى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله الى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار الى الثغر ، حيث التجأ الى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفى فى سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة الى حيث لا يعلم أحد . ونودى فى سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم ، حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم(١) .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها الى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

* * *

ولنعد الآن قليلا الى الوراء لنتتبع مصاير دولة بنى حمود فى جنوبى الأندلس . وقد رأينا أن يحيى بن على بن حمود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة فى سنة ٤١٤ هـ ، سار الى بلدة شريش ، فسار يحيى فى أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل فى سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر فى الأندلس ، ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفى فى سنة ٤١٦ هـ ، ولكنه غادرها بعد ذلك الى مالقة ، التى غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، فى أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضى اسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسبما تقدم . فسار بقواته الى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانتزعها من يد حاكمها محمد بن عبد الله البرزالى كبير بنى برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالى الى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم الى لهوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ — ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ — ١٤٠ .

على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضي ابن عباد أن يدحض دعوة المعتلى فى الخلافة أولا ، فأظهر فى أواخر سنة ٤٢٦ ﻫ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس الى الدخول فى طاعته . ثم سير ابن عباد الى قرمونة بعض قواته مع ابنه اسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلا ، وكمن معظمها فى أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر ، فخرج فى قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين فى معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل فى المعمعة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً الى ابن عباد فى إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧ ﻫ — نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) ، واستمر فتك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلاحينما تدخل محمد بن عبد الله البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه[1] .

ولما قتل المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبى ، وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنّة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان والياً لسبتة . وكان ليحيى ولدين حدثين هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده لولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويع إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمّودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبتة وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واعترفت بولايته رندة والجزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية ، وحبّوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧ ﻫ (١٠٣٦ م) سارت القوات المتحالفة الى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشتانة ، ثم احتلوا « القلعة » ، الواقعة شرق إشبيلية ، وأحرقوا طريانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك الى ألمرية .

وفى العام التالى توفى حبوس ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بُلُقّين الى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

فسار زهير فى قواته الى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى « ألفُنت »[١]. والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضايق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعـــد ذلك . وحدثت هذه الواقعة فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)[٢].

وكان القاضى ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح الى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده اسماعيل فى جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقى ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالى ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجّة الواقعة فى شرقها . فاستغاث البرزالى بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته ، ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل اسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)[٣].

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفى إدريس المتأيد فى قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته فى السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة فى مالقة ، وذلك بترتيب أبى جعفر ابن بقنّة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتاً حدَثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقنة سارع برفعه الى العرش استبقاء لسلطانه الذى تأثل فى ظل

(١) وهى بالإسبانية Daifontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

(٢) راجع فى تفصيل تلك الحوادث ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجا الحاجب الصقلبي ، وكان يومئذ بسبتة ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة الى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخي إدريس) ، وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبتة والثغور المغربية ، فبويع حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن فى أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات الى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى الى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار الى قمارش ، وأقام بها .

وبويع حسن بن يحيى بالخلافة فى مالقة فى جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور الى الوزير أبي جعفر بن بقنة ، وعهد الى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبي جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيى ، فدبر مقتله ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ[1] ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل فى ربيع الثانى سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسم فى جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها من يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية[2] ومنها من يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبتة . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر فى قواته من سبتة الى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا الى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاسترابوا منه ومن مقاصده ، وائتمروا به ، وقتلوه فى الطريق . ثم ساروا الى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه الى السجن ليأمن منافسته ، فأخرجه

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٣٦ .

(٢) المراكشى ص ٣٧ .

الجند من سجنه وبويع بالخلافة ، وتلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٣٤ﻫ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعه البربر فى غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن مقانا الفنداق الأشـــبونى فى مديحه ومطلعها :

البرق لائح من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أســيافه عــارية ... كمخاريق بأيدى اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ... وبقلبى زفــرات وأنين
وأناجى فى الدجى عاذلتى ... ويك لا أسمع قول العاذلين(١)

وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلات ، أديباً ينظم الشعر ، ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحاباً من أراذل القوم ، وكان ضعيف الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك الى سلطانه . وفى أواخر سنة ٤٣٨ﻫ (١٠٤٦م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ، فخرج إدريس فى صحبه من مالقة الى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه ، فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع أهله وصحبه الى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨ ﻫ ، وتلقب بالمهدى ، وتوطد أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحى نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه ، وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ؛ وأبدى المهدى عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه . والاعتراف بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض الآخر ومنهم أبو نور بن أبى قرة اليفرنى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة إدريس ابن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا الى الخليفة المزعوم الذى أقامه ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم(٢) .

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧ و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

واستمر محمد بن إدريس المهدى فى كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم ير خصومه وسيلة للتغلب عليه ، لجأوا الى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسم ، وذلك فى أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه فى صفة تاجر ، وغادر البحر الى شاطىء العدوة ، فأخذ الى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطى(١) .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعه الى سبتة ، فأقام بها فى كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً فى رندة ، فى كنف حاكمها أبى نور ابن أبى قرة ، فلما هلك السامى ، سار الى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر فى الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وانضمت إليه ألمرية ورندة . ولكن معظم الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، سار باديس فى قواته الى مالقة ، واستولى عليها وضمها الى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار الى ألمرية ، ثم عبر منها البحر الى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ، واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤ م)، والمستعلى هو آخر من حكم فى مالقة من أمراء بنى حمود .

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة ، وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، قد اجتمع على البيعة لبنى محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع عمه القاسم بن حمود ، قد قبض على ولديه محمد وحسن ، واعتقلهما بالجزيرة ، فلما توفى يحيى ، أفرج عنهما . وتولى محمد حكم الجزيرة ، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه دولة المهدى فى مالقة ، ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه ، فسار فى أنصاره الى مالقة يحاول انتزاعها من يد المهدى ، ولكنه أخفق فى محاولته ، فارتد الى الجزيرة ، وتوفى بها فى سنة ٤٤٠ هـ .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

فخلفه ولده محمد وحكم الجزيرة فترة قصيرة ؛ ثم خلفه ولده القاسم ، وتلقب بالواثق ، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد . ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة . ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على خلافة الحمّوديين بصفة نهائية ، فبعث قواته الى الجزيرة الخضراء فطوقتها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً الى التسليم ، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦هـ — ١٠٥٥ م) ، وسار الى ألمرية حيث التجأ الى حماية صاحبها المعتصم بن صمادح ، ولبث بها حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) .

وفى نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلى (٤٤٩ هـ) ، وانهار بها سلطان الحموديين . وهكذا انقرضت دولة بنى حمود من مالقة والجزيرة معاً وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسبانى الجنوبى ، وثغور العدوة الشمالية ، زهاء نصف قرن(١) .

* * *

وهكذا انحدرت اسبانيا المسلمة ، فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية ، الى معترك مروع من التمزق والفوضى ، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة ، تمتد من ضفاف دويرة شمالا الى مضيق جبل طارق جنوباً ، ومن شاطىء البحر الأبيض منذ طركونة شرقاً حتى شاطىء المحيط الأطلنطى غرباً ، الى أشلاء ممزقة ، ورقاع متناثرة ، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة ، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار ، أو متغلب من الفتيان أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضى المثلث الإسبانى الجنوبى ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هى دول « الطوائف » ، فى أواخر الربع الأول من القرن

---

(١) راجع فى تفاصيل الحوادث المتقدمة ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧ ؛ والمراكشى ص ٣٧—٣٩ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣ . وراجع بحثا بالإسبانية للأستاذ المستشرق الغرناطى سيكو دى لوثينا عن دولة بنى حمود ، عنوانه :

Los Hammudies, Senores de Malaga y Algeciras, p. 47 - 53

الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء نصف قرن ، وهى التى كادت بتنابذها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن اسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعانى من انقسام الكلمة ، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، الى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنابذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح ، فى توجسها وانزعاجها ، الى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

ثبت المـــراجع

— ١ —

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب « العبر » (بولاق) .

تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّرى (الطبعة الأهلية) .

البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الثـانى المطبوع بعناية العلامة دوزى بليدن ، والثالث المطبوع بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال) .

الحلة السيراء لابن الأبار ، الأصل الكامل المخطوط بالإسكوريال ، والمختارات المطبوعة بعناية دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) .

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشنتريني (القسم المنشور بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .

طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩ هـ) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .

نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى (الرباط سنة ١٩٣٤) .

جذوة المقتبس للحميدى (القاهرة سنة ١٩٥٢) .

الصلة لابن بشكوال (المكتبة الأندلسية ، والقاهرة ١٩٥٥) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة) .

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبى (القاهرة ١٩٤٧) .

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط بالإسكوريال) .

— ٢ —

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête des Almoravides (1932).

„ Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.

F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).

Modesto Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1889).

Julian Ribera : Disertaciônes y Opúscolus (Madrid 1928).

R. Altamira : Historia de España y de la Civilizaciôn Española (Barcelona 1900).

R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).

„ „ „ Origines del Español.

„ „ „ Historia y Epopya.

F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Côrdoba en los ultimos años de Al-Hquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).

F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Côrdoba en los ultimos años de Al-Haquam II (B.R.A.H., XIV, 1887).

A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

L.S. de Lucena : Los Hammudies Señores de Málaga y Algeciras. (Málaga 1955).

فهـــرست

صفحة

مقـــدمة ٣

الـكتاب الثـانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الرابع : ربيع الخلافة الأندلسية

الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله ٦

الفصل الثانى : هشام المؤيد بالله ٣١

الـكتاب الثالث

الدولة العـــامرية

الفصل الأول : الحاجب المنصـــور ٤٨

الفصل الثانى : خلال المنصور ومآثره ٧٨

الفصل الثالث : الممالك النصرانيـــة الإســـبانية خلال القرن العـــاشر الميـــلادى ٩٧

١ ــ نشأة مملكة قشتالة... ... ... ٩٩

٢ ــ مملكة ليـــون ١٠١

٣ ــ مملكة نافـــار ١٠٧

٤ ــ عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية ١٠٨

٥ ــ تنظيم السلطات السياسية ١١٠

صفحة

الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله ١١٤

الفصل الخامس: عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية ... ١٢٨

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بنى حمّود

الفصل الأول : الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى ١٤٦

الفصل الثانى : دولة بنى حمّود ١٥٩

ثبت المراجع ١٨٠